



السنة الثالثة عشرة
كانون الأول 2014

رؤى حول حوار الحضارات

الكهنة المسيحيون وخدمة اللغة الكوردية

تحديات تواجه الصحوة الإسلامية المعاصرة..

خارطة طريق لإقامة الدولة الكوردية

مجلة سياسية ثقافية عامة يصدرها شهرياً مكتب الإعلام للاتحاد الإسلامي الكوردستاني

A political and cultural magazine, issued monthly by Kurdistan Islamic Union

الموقع الإلكتروني: http://alhiwarmagazine.blogspot.com

البريد الإلكتروني: Alhiwar2003@yahoo.com

العنوان: أربيل ـ محلة طيراوه / مقابل نقليات الشمال / قرب المركز الثاني للاتحاد الإسلامي الكوردستاني

محتويات العدد

كلمة العدد

دورة ابتدأت..

بصدور هذا العدد نكون قد اقتربنا خطوة أخرى نحو استكمال الدورة الجديدة لمجلة (الحوار)، التي ابتدأت مع العدد (١٣١)، الذي صدر مطلع شباط ٢٠١٤..

وقد حاولنا في هذه الدورة الجديدة، وبهمة فريق العمل في المجلة، ومؤازرة ودعم كتاب الأعمدة الثابتة، ونتاجات الأساتذة الكرام، أن نخرج بالمجلة من طابعها الفضفاض، الذي كان يليق بمطبوع أسبوعي، إلى طابع أكثر جدية، وأعمق فكراً، يليق بمجلة ثقافية شهرية.. فكان أن حصل التغيير في الشكل، وفي المضمون.. وقد جاء هذا التغيير، كما لاحظنا من ردود الفعل التي وصلتنا، من أكثر من جهة، إيجابياً، ومرحباً به، من قبل جمهور المثقفين والمتابعين للمجلة..

على أن الذي كان محور الاهتمام والتركيز لدينا، هو الاستمرار في نهج المجلة، الفكري والثقافي، وتعميقه، بما يخدم مجمل الحالة السياسية والثقافية، في كوردستان والعراق، مؤكدين على ثقافة السلم، والحوار، والتعارف بين الشعوب والأقوام.. وقد حرصنا، كل الحرص، على الابتعاد عن الشد الطائفي، أو التطرف الفكري – سواء أكان قومياً أم دينياً – دون أن يعني ذلك إهمال البعد المحلي – الكوردستاني لمجلتنا التي تصدر في إقليم كوردستان العراق، بما يعنيه ذلك من إيلاء الاهتمام، والعناية، بتاريخ وثقافة شعبنا الكوردي، والدفاع عن حقه المشروع في الحياة الحرة الكريمة..

يأتي كلامنا هذا بمناسبة الخطوة الجديدة، التي أمكن تحقيقها، بالتعاون مع (دار نشر مومنت)، البريطانية، التي وسعت من آفاق نشر وتوزيع المجلة، بما يخرج بها عن نطاق كوردستان والعراق، إلى رحابة العالم كله، وذلك بتوفير المجلة (ورقياً، وألكترونياً) لكل من يرغب بها، أينما كان، دون كبير عناء..

لا شك أن هذه الخطوة الجديدة تفرض علينا مزيدا من المسؤولية، والالتزام، أمام قرائنا وكتابنا. وهو الأمر الذي يزيدنا إصرارا وحرصا على المضي قدما في مشروعنا الفكري والثقافي هذا، مسترشدين بشعارنا الذي رفعناه: (رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب)، آملين أن تكون (الحوار) مائدة لكل الآراء، بما يخدم شعبنا ووطننا، والإنسانية جمعاء❑

رئيس التحرير



- رؤى حول حوار الحضارات حوار: سرهد أحمد

رؤى حول حوار الحضارات

أجرى الحوار: سرهد أحمد

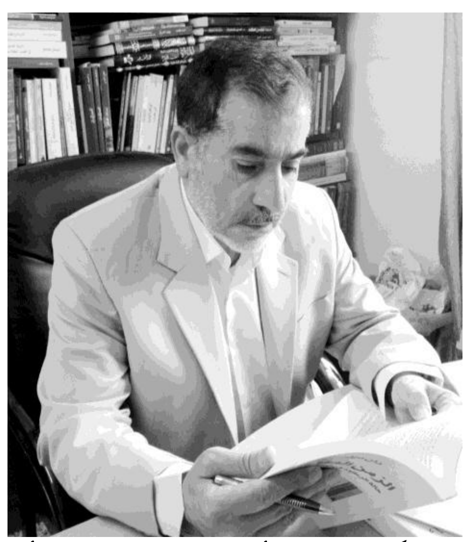
✍ تعتبر فكرة (حوار الحضارات) من الأفكار والمفاهيم الأساسية، حيث أصبحت تحتل مكان الصدارة في قائمة الاهتمامات لدى العلماء والنخب الفكرية والسياسية، بالأخص عند التيار الإسلامي الاعتدالي، باعتباره محصلة عوامل كثيرة، حيث شهدت الساحة الفكرية الإسلامية تصاعد وتيرة الاهتمام بالحوار، تنظيراً وتأسيساً، من خلال جهود فردية أو مؤسسات أخذت على عاتقها دعم مشروع حوار الحضارات، فأصبح بذلك الحوار مطلباً إسلاميًا، ولم يبق مجرد مطلب غربي، كما كان في العقود الماضية، خاصة وأن الحوار لا يتنافى مع مفهوم الإسلام للتعارف بين الناس والتدافع بينهم.

ومن جانبها تسعى مجلة (الحوار) إلى المساهمة، ولو بنزر يسير في عملية البحث عن المنهجية الشاملة لمسألة الحوار الحضاري، كانعكاس حتمي للتغيرات والتحولات الكبيرة التي شهدها العالم في الآونة الأخيرة، فارتأت أن تعد ملفاً خاصاً عن هذا الموضوع، كاستكمال لما بدأته في أعداد سابقة، من خلال فتح باب النقاش مع كل من (الأستاذ محمد رشدي عبيد – الباحث والمفكر الإسلامي) و (السيد عبد السلام مدني – الناشط في مجال المجتمع المدني).



*** الحوار: بداية يحسن بنا أن نعرض لمفهوم الحوار، ومفهوم الحضارة، حتى نتعرف على حوار الحضارات، وننطلق لرؤية واضحة، تكشف عن ضرورة الحوار للإنسان وحاجة الإنسان إليه.. والسؤال هو: ما المقصود بالحضارة وعلاقتها بالثقافة وبحوار الحضارات؟**

- الأستاذ محمد رشدي عبيد: الحضارة تعني مجمل إنجازات الإنسان المادية والمعنوية.. ومنهم من يرى أن هذا المصطلح ترجمة موافقة للكلمة الفرنسية "civilization"، وأول من استعمله من الفرنسيين الاقتصادي (آن جاك تورغو). وهناك "١٦١" تعريفاً للحضارة جمعها الأنثروبولوجي الألماني الأمريكي (ألفريد كروبر).



لكننا نقرأ في معجم غربي أن الحضارات مجموعات متباينة، وكلُّ حضارة تنقسم إلى عدد مرتفع من الحضارات، وفيه أيضاً أن مضمون الحضارة غامض، ويوافقه بعض الحضاريين الذين يؤكدون أن تعريف الحضارة، والمفاضلة بين الحضارات، أكثر تعقيداً مِمّا نتصوّر، لتعدّد مستويات القراءة، ومناهج التحليل. كما يرى آخرون أن دلالة المصطلح عرفت تحولاً واضحاً على امتداد تاريخه الطويل، ويتجلّى ذلك في اختلاف المعرِّفين لها، وفي تفاوتِ فهمهم، وتباين مشاربهم، وتعدّد منطلقاتهم النظرية.

وفي اللغة العربية، تعني الحضارة: الحضور، ولها علاقة بسكنى المدن والحضر، وهي تعني مجمل إنجازات الإنسان المادية والمعنوية، في إطار ثقافةٍ

ما.. بينما يرى (مالك بن نبي) أنها هذه الإنجازات التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل فرد جميع الضمانات اللازمة لتطوّره، مفترضاً وجود معبود غيبي تتوجّه نحوه الإنجازات الحضارية.

ويرى (نصر عارف) أن كل حضارة لا بُدّ لها من عناصر خمسة: نسق عقدي، وبنية فكرية وسلوكية، توجهها منظومة قيم، ونمط مادي مجسّم، وطريقة للتعامل مع العالَم والكون، وأسلوب للتعامل مع الآخر وحضارته. بينما نجد (د.علي حرب) في مرحلة ما بعد الحداثة، يشكك في الثوابت والهويات والمنظومات، ويرى أن علينا أن نتغير نحن كثيراً، ونغير الآخر، في عملية صيرورة لا نهائية، وفق هذا الزمن الديناميكي، والتداخلات الحضارية الهائلة.

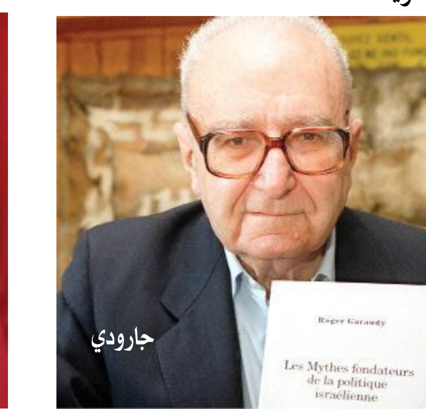
وهناك تعريف غربي ساقه (فرنان بروديل) في كتابه "قواعد لغة الحضارات" المطبوع سنة ٢٠٠٩، يؤكّد في هذا الصدد على البُعد الثقافي من الحضارة، وهي: علوم الإنسان "الأنثروبولوجيا"، والتاريخ، والجغرافية، وعلمي الاجتماع والاقتصاد، والفلسفة، وعلم النفس الجماعي، والأدب والفن، وكذلك على البعد المادي الفيزيقي والمعطيات الطبيعية، مثل: الفضاءات، والأراضي، والتضاريس، والمناخات، والنباتات، والأجناس الحيوانية، والمنافع المعطاة أو المكتسبة. وشبّهَ الحضارةَ ببحرٍ


د. علي حرب

عميق يجبُ الغوص في داخله، كما لمح كذلك إلى وجود تركيبات ثقافية وحضارية متناقضة أحياناً في حضارة واحدة، وإلى تعريف الحضارة بسبر كل العوامل المساهمة في نشوئها، وعن طريق مقارنة الحضارة بغيرها. والحضارة الإسلامية-كما يرى (فرنان بروديل)- كانت واحدة، لتشابه منجزاتها المادية والمعنوية، لكنها لم تخل من تنوّع.

بينما (المدنية) معاييرها نفعيّة دقيقة، أقرب إلى المادية والتقنية، ولا تغني عن الحداثة العقلية والفكرية. لذا فنحنُ -حسب هذه الرؤية- مدنيُّون لا حضاريُّون، حين نكتفي بنقل بعض أسباب المدنية والتقدّم، مع إهمال بعض وجوه التقدّم الحضاري مِمّا يناسب حداثتنا، أو ننقل نقلاً استنساخياً عن الآخر، كأن نهمل البناء الأفقي معمارياً، مع كونه أكثر مناسبة لذوقنا، وأكثر

رحابة وحرية.



جارودي


خاتمي

أما هذه الكلمة (culture)، فتعني (ثقافة)، كما هو معلوم، أي: الحذق، والفطنة، والصقل، والبحث العميق، والحفر الأركيولوجي، والارتقاء المعنوي، وفي الإنجليزية لها الجذر نفسه تقريباً.

والفرق بين الحضارة والثقافة، كما يراه (د.علي حرب)، هو أن الحضارة تحيل إلى المكان والحاضرة، أما الثقافة فتحيل إلى الزمان والذاكرة، والحضارة تقنية وأداة، والثقافة قيمة ومعيار، والحضارة سوق ومبادلة، والثقافة إنتاج للرموز والنصوص، والحضارة تنتج المجانسة والمشاكلة، في حين أن الثقافة تخلق التنوّع والغنى والفرادة.

وهناك تعاريف أخرى للحضارة والثقافة انطلقت من زوايا عِدّة، وهي تركّز على الرأسمال الرمزيّ للإنسان، بشرط أن يتّسِمَ بنقلات إبداعية وتنويعات ذكية، في بنية الفكر وكيفية التعامل مع العالم، فيها روح الإنجاز المعرفي، يُضاف إليها الظرافة، والرّقة، والجمال، في التعامل الاجتماعي والفن.

أمّا (حوار الحضارات)، فهو مفهوم جديد، انبثق من الشعور بحاجة كل حضارة إلى غيرها، في مجالات الفكر والثقافة والسياسة والاقتصاد. وقد ألّف (جارودي) كتاباً بهذا الاسم، بعد جولاتٍ ثقافية وسياحية ومقابلات مع ساسة وفنانين وكُتّاب. كما طرح (محمد خاتمي) رئيس الجمهورية الإيرانية، هذه النظرية سنة ١٩٩٧، للانفتاح على الغرب، وألقى كلمة في الجمعية العامة للأمم المتحدة، داعياً إلى التفاهم لدحض الصدام. وقد تم إنشاء العديد من المؤتمرات والجمعيات والمؤسسات الداعية لهذه الفكرة، وحدّدت الأمم المتحدة سنة ٢٠٠١ سنة للحوار، وعينت مندوباً لهذه المهمّة. وعرّفت (الويكيبيديا) الحوار بأنه: التشاور والتفاعل الثقافي بين الشعوب، والقدرة

على التكيّف مع الأفكار المخالفة، والتعامل مع جميع الآراء! ولا شك أن التعامل غير التكيف، وكلما زادت وسائل الاتصال نوعاً وتعقيداً وكماً، وسهلت المواصلات، وكثرت الرحلات، شعر أصحاب كل حضارة بالحاجة إلى الاستفادة من الآخر وإنجازاته، والبحث والحفر في أسباب سوء التفاهم بين الحضارات، ومن ثم تبني حوار الحضارات، لتلافي أسباب النزاع والخصام. فالكرة الأرضيّة اليوم كمركب يطوف على سطح محيط مُضطرب، وليس كسطح جغرافي جامد وثابت، وإن كانت منطقتنا اليوم أكثر تموّجاً وخلخلة وثورة، فلا بُدّ من أسلوب تفكير، وأشكال ممارسة، تتسِمُ بلمِّ الشمل، وجذب مناطق التوتر نحو مركز مستقر. ويقع علينا كثير من العبء في تجاوز التفجرات، وامتصاص الغليان، وتفهّم أسباب الخلاف بين المكونات، والبحث عن صيغ مستوعبة، وقواسم مشتركة لصالح هذه المكونات، لنقف على أرضيّة لا نخجل فيها من تقديم طلبات الحوار مع الآخر.

- **السيد عبد السلام مدني:** مع وجود تعريفات متعددة للحضارة، إلا أنني أميل إلى ما لخّصه عنها (مالك بن نبي) بأنها مجموع (ثقافة) أمة أو شعب ما، ومنتجها الثقافي، مجموعاً مع منتجها (التقني/التكنولوجي/المادي/المدني)، أو كما يسميه في مكان آخر (الأفكار + الأشياء). وبالحق فإن مصطلح (Civilization أو Civilisation) قد عانى من مشكل الترجمة من الإنكليزية إلى العربية، وهل هو (حضارة)، أم (مدنية)؟ باعتبار أن كلمة (Civil) تعني (مدني!) كما شرح ذلك الدكتور (محمد عمارة) بإسهاب في كتابه (معركة المصطلحات). لذا فالحضارة لها ارتباط وثيق بالثقافة، وبالتالي بحوار الحضارات، من ناحية الاصطلاح، وبنية المصطلح، وأيضاً من ناحية الإسقاط على



الواقع كممارسة.

والحضارة كمفهوم شامل تعني ما يميز شعباً أو أمة معينة عن الآخرين، من حيث مجموع طرق العيش، والعلاقات الاجتماعية، والوضع الاقتصادي، وأنظمة الحكم، والفنون، والآداب،

والعادات، والتقاليد، والميراث التاريخي، والقيم الدينية، والأخلاقية، ومقدار التقدم العلمي، والتقني، ومقدرة الإنسان في كل حضارة على الإبداع، والإنجاز، والإنتاج، في كل هذه النواحي.

*** الحوار: ما أهمية الحوار بين الحضارات، وأهدافه، ومجالاته؟**

- الأستاذ محمد رشدي عبيد: تنبعُ أهميّة الحوار بين الحضارات من اختلاف المناخ والبيئة، ومن ثم الأذواق والرؤى بين القارات والبلاد، فلكل منطقة من العالم طبقات أركيولوجية وأنثروبولوجية، تشكّل - ولو إلى حين - بناءَها الثقافي، وتؤثر على توجهاتها الحضارية، وأشكالها الجيوسياسية، وأيديولوجياتها المفضلة، وتلوّنها بألوانها المتعدّدة. ومن كشفِ وجُوه التبايُن والتشابه عبر الحضارات، يمكن الوصُول إلى حدّ رؤيتنا لتنويعاتٍ تجري على سيمفونية واحدة، وتفسح المجال لقَدْر مثير من التبادل، والاستكشافِ المشترك، ومن ثمَّ حاجةَ كل حضارة للسفر مفهوميّاً إلى الحضارات الأخرى، التي قد تجد فيها صورتها التاريخية، أو شذرات من تطلعاتها وطموحاتها الإنسانية. فأحياناً قد لا يكون الأمرُ تحرير مناط أسباب الصراع، بل أسباب عدم فهم الآخر، وقد يكون للإعلام دور في تأصيل هذا الحد من عدم الفهم، بإعادة إنتاج التاريخ، لصنع واقع طبقاً لتاريخ يلعب فيه المخيال - والتحيزات، التي أشار إليها كل من (إدوارد سعيد) و(المسيري) - دوراً في نقل صورة نمطيّة عن الحضاراتِ الأخرى.

إن كان لكل حضارة أن تحتفظَ بتصوّرها الجوهري لحضارتها، مكتفية بتفاعلاتٍ حدودية، تجنباً لصدام الحضارات - وكما يقول بعض الكتاب- فإن مقولة (هنتنجتون) لا تحظى إلاّ بالقليل من الاهتمام، بعد صعود أيديولوجيا التعددية الثقافيّة. فالحضارة الأمريكية - على سبيل المثال - ليست جسماً بنيوياً متجانساً، ففيها أكثر من ٢٠٠٠ أثنية ودين ومذهب وثقافة، والحضارة الكوكبية القادمة لا بُدّ أن تحتوي هذه المكونات وتستوعبها خارج أمريكا وأوروبا، فقد أصبحت أوروبا أشبه بتباين ديناميكي متحرّك، حتى ليدعو كتابٌ إلى الاستفادة من كل التجارب الدينية في الغرب.

فعلى الرغم من التعدديات، توجد هناك عُملة مشتركة بين الجميع، وهو الفكر والمنطق، والقيم الإنسانية، والمصالح المشتركة بين الشعوب قاطبة، وتتجلّى أهداف الحوار في البحث عن أرضية مشتركة للتثاقف والتعاون، فيما فيه مصلحة الإنسانية على جميع الصعد والمجالات، بعيداً عن العُقد النفسيّة

والحزازات، ومنطق القوة والعدديّة، وما لم يقم عليه دليل علمي، من وجود فوارق تشريحية في الدماغ، أو امتلاك أمة لكل الحقيقة، بل هي عوامل تاريخية، وتراكمات من الأحقاب الجيولوجية، وصدف قدرية، جعلت بعض الأمم تتسلم راية الحضارة، فتلونها بلونها، وتحاول تعميمها، أحياناً بتكلف، أو أحادية في التصور.

– **السيد عبد السلام مدني:** البشر يعيشون في تجمعات، أمم، دول، شعوب، ولكل مجموعة بشرية ملامحها الثقافية الخاصة بها، والتي ساهمت عبر التاريخ، بشكل كلي أو جزئي –حسب كل أمة– في ترك بصمة على التركة الحضارية للإنسان على الأرض. ولئن كانت الأمم متباعدة في الأزمنة الغابرة، والتواصل بينهم والتأثير والتأثّر قليل، فإنه ازداد بعد ذلك في فترة الامبراطوريات، المتجاوزة لحدودها السياسية والأممية والإثنية، التي جعلت من ثقافتها غالبة على أهلها، وعلى الآخرين، برضا أو بقهر. ومنهم من أنتج تقنية ومدنية على أساس ثقافتها، ليتمخض عن ذلك حضارة متميزة ذات ملامح خاصة بتلك الأمبراطورية أو الأمة. حالياً أصبحنا نعيش اليوم عالماً مفتوحاً، ولم تعد الحروب والسيطرة العسكرية، بالشكل التقليدي، واردة، وأصبحت المصالح متداخلة، والأسواق مترابطة، والثقافات متلاقحة، فكان لا بد من فتح باب الحوار بين مختلف هذه الحضارات، التي صنعت التاريخ، بل وحتى تلك التي اكتفت أن تكون معبرة عن أهلها فقط، وحافظت على تميزها فقط. وكل ما هو مطلوب: خلق فضاءات الحوار، وتطوير مهارات وآليات للحوار بين الحضارات، لكي يصبح معنى القرية الصغيرة صحيحا، في بناء علاقات حوار وجوار وتعاون، بعيدة عن الإرهاب الفكري والجسدي، أو السيطرة بالقوة الناعمة أو الخشنة، أو التدخل باسم الاستعمار أو الاستحمار!

* الحوار: ما هو الإطار الرئيس المرجعي للحوار؟

– **الأستاذ محمد رشيد عبيد:** تتقاسم العالم أديان شتى، وأيديولوجيات وضعية، ومذاهب متفرعة، وأفكار، عمقت بعض المفاهيم والاعتبارات. فـ(العلمانية) ركّزت على مذهبية العلم التجريبي والمعرفة الحسية، جانحة إلى التطرف، حيناً على حساب الأبعاد الميتافيزيقية في ذات الإنسان، واليسار بدا منتصراً للكادحين، وأصّل ذلك أيديولوجياً لحدّ الدوغمائية والتقديس، وأحدة المعرفة. و(الليبرالية) تجافي العقل أحياناً، بزعم الحرية، وتهيمُ في أودية الممنوع والممتنع. و(الديمقراطية)

تبالغ في زعم كفاية حكم الأغلبية على حساب الأقليات، والنوابغ النوادر من المفكرين، غير الخاضعين لقولبة النظم السياسية. فلا بُدّ من وضع أطر مرجعية للحوار المتجدد، في كل تحقيب معاصر، تعتمد على العقلانية غير المتحيزة، والضمير اليقظ، والقراءة الموضوعية الشفافة للآخر، والنصوص التي لا تحجب الحقيقة. فليس كل أسلوب معولم في الحياة ذا سمة جبرية، بل قد يكون من صنع أشخاص وجماعات، وينتشر عبر قرارات وأنشطة، لا تخلو من ردود فعل أو شهوات غير منضبطة حضارياً، بل قد تمثل خروجاً على القانون الطبيعي.

– السيد عبد السلام مدني: على كل من يؤمن بالإنسان، باعتباره قيمة عليا في هذه القرية، وبأنه صاحب رسالة إنسانية على هذه الأرض، ويؤمن بأن الإكراه والقسر والإقصاء والإلغاء والتهميش ليس سلوكاً إنسانياً، بل هو – بالأصل– ما تخوفت منه الملائكة، على الأقل وفق تصور الأديان السماوية الرئيسة الثلاثة: (الإسلام – المسيحية – اليهودية)، من أول ما خُلق (آدم)، بأن تأتي مجموعات بشرية تريد أن تلغي حرية الإرادة والاختيار عند أخيه الإنسان، وأن يقوموا بالإفساد في الأرض: {قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟!} البقرة (٣٠)، وبأن أول خطيئة عملية قام بها


هنتنجتون

الإنسان على الأرض كانت (القتل): {فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله، فأصبح من الخاسرين} المائدة (٣٠)، وهي أوضح حالات عدم تحمل الآخر، وإقصائه من الحياة جملة وتفصيلاً، هذا هو الإطار المرجعي الأكبر. ومن بعد ذلك، لا بد من الانطلاق من مرجعيات وأدبيات كل حضارة على حدة، للانطلاق من المعرفة الموجودة فيها، واستخدام الآليات والوسائل المطروحة هناك، وأخلاقيات التعامل التي تحقق غايات الحوار الحضاري. وهي كثيرة وثرية، وبينها جميعها الكثير من المشتركات، التي من الضروري تحديدها لتكون أرضية صلبة للانطلاق نحو خطاب عالمي، يجمع على المشتركات، ويحفظ الخصوصيات، لتسير (سفينة الأرض) في بحر هادئ إلى أرض الأمان!

*** الحوار: ما منطلقات (حوار الحضارات)، وهل هو رد على (صدام الحضارات)؟**

- **الأستاذ محمد رشدي عبيد:** منطلق حوار الحضارات أن الحوارات هي أساس تقدم العلم والتنوير الفكري والنمو المعرفي، وهي أداة بناء الذات العارفة، التي تعيش عصرها، وتهتم بواقعها، بما ينقل إليها عبر الحوارات ذاتها والسجالات، مما يشحذ ذهنها، ويوقظ ضميرها، ويشعرها بمسؤوليتها، ويدفع بها إلى واجبها. أضف إلى ذلك، ضرورة رصد التحولات والتطورات والانقلابات الفكريّة والاجتماعية والفلسفية في عالم اليوم. فالحوار بالنسبة إلى الأمم المتخلفة، في بعض واجهات التقدم، ضرورة واقعية، لتنجو من الانقراض والهامشيّة، وسوء الحالة الحضارية. وبالنسبة للأمم المتقدمة واجب أخلاقي، تفرضه النظرة الغائية للعالم. أمّا كون الحوار رداً على فكرة الصدام، التي أعاد تأصيلها (هنتنجتون)، فهي منهجياً ليست رد فعل فيزيقي، لتجنب ويلات الحروب والصراعات فقط، حيث يعم السلام، الذي يدفع إلى التفكير جدياً، فيرفع سقف الأداء البشري الحضاريّ، ويوفر العائد في توفير الحياة الكريمة لعددٍ أكبر من الناس، بل هي مبدأ يقوم على القوانين الطبيعية الراسخة، التي منحت المخ البشري ملايين الخلايا للكشف والإبداع والتنمية، وسبر هذا العالم، وكشف خبايا النفس البشرية، بينما تتكفل غدة واحدة، وهي غدة الأدرينالين، بالتحفز الضروري لمواجهة أي خلل في مسيرة الإنسان، وعلاقته بالآخر والطبيعة. بل إن ما أخذ على الثورات، التي كانت تحمل شعارات إنسانية، أنها أكلت أبناءها، وأفرطت في استعمال العنف، لغلبة الانفعالات الجامحة على الضمير والعقل. وإن من منطلقات الحوار كونه ضرورة واقعية، ومبدأً إنسانياً، ووسيلة للسلام، وجني ثمراته التنموية والحضارية، ولا ننسى أن للدين والإسلام مداخل خطابية، تتوق تخليص العالم من آلامه، أو تخفيفها، وتعظيم الخالق، ومقاربة رضاه، الذي يفهم ضمن أطر العقل والضمير.

- **السيد عبد السلام مدني:** أنا مؤمن أن النصوص الأساسية والمعتمدة، لكافة الحضارات الرئيسة، تدعو إلى الحوار والعيش المشترك، وفيها الكثير من الأسس التي من الممكن أن نبني عليها مجتمعاً إنسانياً، يسمح بالحوار بدلا عن الإلغاء والإقصاء، والمسح أو المسخ. ومع ذلك أنا مؤمن بأن هناك مجالا كثيراً لسوء التأويل لنفس هذه النصوص الأساسية، للقيام بعكس ما ذكرت. ومن أكبر الأدلة على ذلك، تلك الممارسات التي قام، ويقوم بها، المنتمون إلى هذه الحضارات/الثقافات، تاريخياً بكثرة، وحالياً بشكل أقل، ولكن ما يزالون يشكلون تهديداً. لذا فإن (صاموئيل

هنكتنتون) كان يقرأ هذا الجانب من التاريخ والواقع، وأسس على ضوء ذلك نظريته في (صدام الحضارات). في جانب آخر، فإن حوار الحضارات لم يكن رداً على ما قاله (هنكتنتون)، فالمحاولات كانت وما تزال، قبل وبعد الكتاب، لأنها حاجة إنسانية ملحة. ولا أحبذ أن تكون رد فعل، لأن (رد الفعل) قد ينتهي مع (الفعل)، والمطلوب أن يكون الحوار نفسه (فعلاً) قائماً مستقلاً بذاته، على أسس معرفية، وذا آليات، وطرق، تجعل العالم مكانا يستحق أن يكون محلاً لعيش الإنسان.

*** الحوار: هل عرف تاريخ العلاقات بين الحضارتين الإسلامية والغربية فترات حوار وتفاعل؟**

- الأستاذ محمد رشدي عبيد: فضلاً عن أن الحضارة الغربية عرفت فترات صراع وتفاعل بين البربرية والبداوة، والمدنية والحضارة، بين الخرافة والعلم، بين التعصب المذهبيّ والتسامح، فكذلك الحضارة الإسلامية عرفت ذلك.

أمّا الحوار بين الحضارتين، فرغم أنه لم تقم له مؤسسات وقنوات دائمة، فقد شهد تاريخ العلاقات بين الحضارتين فترات تبادل ثقافي، عن طريق الحروب الصليبية، والأندلس، كما هو معروف.

- السيد عبد السلام مدني: لا أتصور أن البشرية مرت بمرحلة كان الحوار فيها حاجة ومطلباً بأن يكون منهجاً مبرمجاً، كما نحن عليه الآن، فالتداخل العالمي والاحتكاك، بسبب التكنولوجيا، جعل من المسألة حتماً لازباً، لا مفر منه. فاليوم أصبح الإنسان/الفرد يشكل خريطة علاقاته على أساس عالمي، ومستوى وكم المعرفة بين يديه لا حدود لها، وأحدنا قد يعرف أوضاع دولة أخرى، تبعد عنه آلاف الأميال، أكثر من معرفته بما يدور في مدينته التي يعيش فيها!!

إن كانت هناك حالات ومقاطع موجودة، ومبادرات، تحاول خلق جو من الحوار، البعض منها كان جهداً منظماً، والبعض الآخر محاولات فردية ومرحلية، فـ(تاج محل) - على سبيل المثال لا الحصر - فيه أركان، كان الفلاسفة من مذاهب وأديان متعددة، يأتون إليها للمناظرة والحوار في أمور الدين والعقيدة، وهي وإن كانت معرفية أكثر، إلا أنها على الأقل كانت تهيئ أرضية للمختلفين أن يعبروا عن ذاتهم، كما وتوفر فرصة للحوار وللتفاهم.

من جانب آخر، أقول إنه لا بد من فتح باب الحوار مع الجميع، وأتفهم دواعي التوجه الذي يدعو بشدة إلى الحوار بين الحضارتين الإسلامية والغربية، باعتباره الأهم. فالحضارة الإسلامية نحن

منها، ونوعية علاقتنا مع الغرب متأثرة بنوعية التفاعل بيننا، كما وأن الحضارة الإسلامية كانت هي التي سلّمت مشعل الحضارة للغرب، وما زلنا لم نفق من صدمة أننا خسرنا كوننا الحضارة الرائدة في العالم، وبين الغرب الذي هو حاليا الحضارة الرائدة، وهي حالياً منتجة الأفكار والأشياء، بقوة وبتقانة غير مسبوقة، وبسرعة مهولة، مع أننا نستخدم المصطلح مجازاً، ونعمم في إطلاقه – ويبدو أن لا مناص من ذلك–. ومع ذلك أختم كلامي بسؤال استنكاري: هل كل الدول المسلمة تمثل توجهاً وفكراً وثقافة واحدة؟ هل كل الغرب غرب واحد؟؟!

*** الحوار: النظام العالم الجديد يعني تفوق حضارة واحدة على باقي الحضارات، كيف يمكن تلافي ذلك؟**

– **الأستاذ محمد رشدي عبيد:** يكون ذلك، من جهة الغرب خصوصاً، بالنظر الموضوعي لفكرة التقدّم، وأنه ليس حصراً بزيادة الكم المادي والتقنية المرفهة فقط، وأن السعادة ليست حصراً في زيادة كم اللذات –التي تنسب لـ(أبيقور) دون أن يريد هو ذلك– بل بالتوازن بين المادة والعقل، والإحساس وفضائه، والشعور ولذاته. ووجدانياً لا بُدّ من التواصل بشكل فعّال وبنّاء مع الآخر، لا بشكلٍ جارح وعنف لفظي، واتهام بالتخلف، بل بدراسة ما يمكن أن يقدمه كل للآخر، وحلّ إشكالياته، وتحديد المصالح، والصعوبات، المشتركة.

– **السيد عبد السلام مدني:** إن كان المقصود بالنظام العالمي الجديد، فكرة أحادية القطب، فظني أنها مقولة نظرية أكثر منها حالة واقعية. فـ(أمريكا) في بداية التسعينات، وفي ٢٠٠٣، اضطرت في تدخلها في العراق أن تجمع من حولها دولاً، سمتها (متحالفة)، لكي تتخذ خطوتها تلك. (الاتحاد الأوربي) يشكل ثقلاً في المعادلات الدولية، (روسيا) عادت بقوة إلى الساحة السياسية، ودورها في أحداث (سوريا)، مع (الصين)، لا يخفى على أحد. كل هذا من الجانب السياسي، وليس الجانب الاقتصادي بأحسن حال. فبشكل عام ما موجود من قوى حضارية، وقوى سياسية واقتصادية، وتلاقحات أو احتكاكات ثقافية، وأخرى اجتماعية، يجعل من مقولة السيطرة والتفوق ليست بالسهولة والتبسيط الذي توحي به مقولة النظام العالمي الجديد وأحادية القطب. من جانب آخر، فإن تداخل المصالح – بفعل التكنولوجيا– جعلت من الحوار الحضاري ضرورة لازمة، لأجل خلق نظام دولي للتعامل على مستويات متعددة، وخاصة الاقتصادية والسياسية،

وأحياناً إلى ميادين أخرى ثقافية واجتماعية. فالديمقراطية – على سبيل المثال – أصبحت مطلباً جماهيرياً عاماً، ومقياساً لمدى توفر الحريات العامة والخاصة، في مختلف الدول، ولكل الشعوب. مفاهيم حقوق الإنسان، والمرأة، والطفل، أصبحت مقاييس لمدى (تحضّر) البلدان، وأصبح المزاج العام يدفع باتجاهاتها، من مختلف الأطياف الفكرية والأيديولوجية. هناك حاجة ماسة لسياسات واتفاقيات دولية لتنظيم الاقتصاد العالمي. وكذلك الحال مع مواضيع متعلقة بالبيئة. نعم هناك متطرفون يدعون حتى إلى إيجاد دين عالمي! ولكن – كما قلت – هذا تطرف! ولا يقول به الكثيرون. وهذا يذكرني بمقولة لـ(توماس فريدمان) حيث يقول: إن معركة الإرهاب ليست بين الإسلام والغرب، إنما هي بين المتطرفين من كل جانب!

الإشكالية الأكبر في هذا الموضوع هي أن الأطراف/الحضارات الأخرى ضعيفة، وليس لديها منتج فكري/ثقافي أو تقني/مدني في هذه المجالات، وغيرها، من الممكن أن يجاروا به ما هو مطروح من قبل الحضارة الرائدة. فالإشكالية ليست أن الآخر أقوى، بقدر ما هي أن المقابل هو أضعف من أن يكون شريكاً! لذا تبقى الحضارة الرائدة حالياً تطرح مشاريعها بالقوة الخشنة، والناعمة، وتغلب الآخرين! فالكثيرون منا، ومن غيرنا، يتعلمون ويتحدثون اللغة الإنكليزية – اللغة الرسمية الأكبر في الحضارة الغربية، مع وجود لغات أخرى فيها – لأنها أصبحت لغة العلم والتجارة والتواصل العالمية. فلا أحد يضغط، إنما هي الحاجة. وهكذا كانت اللغة العربية في يوم من الأيام، لغة للعلم وللتجارة وللتحضر. ومع ذلك هناك أمور يجب أن لا نخشى منها، وأن نجعل حوارنا منطلقاً من فكرة: (انفتاح دون ذوبان، وانغلاق دون تقوقع)، كما يصفها الدكتور (يوسف القرضاوي).

*الحوار: هل سيثمر الحوار في ظل عدم التكافؤ الحضاري؟

– الأستاذ محمد رشدي عبيد: على الرغم من أن الغرب يمثل اليوم منطقة وجاهة، لها جاذبية مثيرة، لوتيرة التقدّم فيها، وهذا يجعله الطرف الأقوى، فإنه إذا توافرت النوايا الحسنة، وأُزيلت الرؤى القائمة على فهم مبتور، وتأويل أناني لـ(نظرية دارون)، حول البقاء للأقوى. وبالمناسبة بين يدي كتاب ألّفه كاتب بريطاني، هو (ريتشارد داوكينز)، باسم (الجينة الأنانية)، يقر فيه بضرورة تجاوز أنانية الجين، لبقاء القيم. كما ذكر (سكوت هيبارد) مؤلف كتاب (السياسة الدينية، والدول العلمانية)، الصادر سنة ٢٠١٤، عن سلسلة (عالم المعرفة)، أن

الصراع، في تجلّياته المعاصرة، بين دول العالم الأول، والعالم الإسلامي، ليس من أجل قيم الدين الخالصة، التي تدعو إلى الوحدة والسلام، بل من منظورات، فيها من التعصب وروح الانتقام، عرفت من منظور ديني. وليس من باب الشماتة أن نذكر بحاجة الغرب إلى قيم، قد نجدها من مقومات حضارتنا. وبين يدي كتابان، أحدهما عنوانه: (انتحار الغرب)، والذي صدر سنة ٢٠١١، يشير كاتبه (ريتشارد كوك)، إلى سيطرة المحسوس والمادي على الميتافيزيقي والإنساني، مع تمزيق التقاليد والقيم الدينية، ولأنماط الفكر المستقرة، وللاستقرار الشخصي والاجتماعي، داعياً إلى احترام التنوّع، وجذب الآخر إلى فلكه ودائرته المكانية، بالقدوة والقوة الناعمة!! وآخر عنوانه: (آلام العقل الغربي)، يبيّن كاتبه الأمريكي (ريتشارد بارناس) أن عقل ما بعد الحداثة، رغم نسبيته الدوغمائية، وريبيته المزنقة قسراً، فإنه يؤشر إلى ضرورة ممارسة حوار مفتوح بين مواقف فكرية مختلفة، قواميس متباينة، نماذج إرشادية (باراديغمات) ثقافية متنوعة، وأن الدين ينتعش ويهتدي إلى أشكال تعبير جديدة، ومنابع إلهام.

أما بالنسبة لنا، فلا بُدّ من تبنّي فلسفة واضحة للوجود والعالم والتاريخ والتقدّم والثقافة والتنمية، لرفع مستوى شعبنا، بالتوازي والتفاهم مع الشعوب والدول المحيطة بنا، أو المقاربة لنا في معالم الهوية، وسمات الخصوصية، وفتح مراكز استراتيجية لدراسة إمكاناتنا البشرية والمادية والجيوسياسية، ووضع الطرق الأمثل للتقدّم، وفقاً لصيغة تناسب العصر، ولا تجرح الكينونة القيميّة لإنساننا، وأن نتيقن أن الشعوب لا تنهض بدون التخلّي عن الأنانية، حيث تتحوّل كل المواهب والمؤسسات: السياسية والاجتماعية والإعلامية والتعليمية، إلى وسائل لرفع مستوى الشعب، من أجل غد أفضل للأجيال القادمة. كما أنه من الضروري أن نعثر على أسلوب معاصر لعرض رؤيتنا على أبنائنا، والعالم، عرضاً وسطيّاً بين النظرة التشاؤموية للتاريخ، وبين النظرة الطوباوية، التي تعرضه كبنية فوق الواقع، وقدرات الإنسان، بحيث لا نحتاج إلاّ إلى جرة قلم، وشيء من تجلّيات الإرادة، لإعادة صنع واقعنا. فالأمر يحتاج إلى إبداع عقلي، وفهم لروح العصر، ومقاصد الدين، وتجديد يبرمج الشعارات الدينية والوطنية والكوكبية في مشاريع وبرامج مرحلية، قبل أن يجتاحنا الزمن الآتي بتحدياته وآفاقه. وإذا كان لا بُدّ لنا من تحليل أسباب النزاعات بيننا وبين الغرب: سياقها، وبنيتها، ومفارقاتها، واتجاهاتها الباطنية، وسلوكياتها الحركية، لعلاجها

في ظلّ التفاهم، فلا بُدّ أولاً من معالجة نزاعاتنا وفق مجموعة من المتطلبات الأخلاقية، وأهمها: العدل، والتجرّد في التعاطي مع النزاع، والنظر في مشروعية أهداف الطرفين المتناقضة، وإنه لا بُدّ للمتصدين للحوار أن يتمكّنوا من لغات الغرب، وأن يطلعوا على أوضاعه، وأن يتمكّنوا من معرفة طرق تفكيره وفلسفته في الحياة، ليثمر الحوار، وتشاد جسور التقدير المتبادل، لا مجرّد قراءة ما يريده الآخر منا: سياسيّاً واقتصاديّاً.

– السيد عبد السلام مدني: أرى، أتابع، وأقرأ للكثير من النخب الفكرية والأدبية، من مختلف الأطراف، ومن الضروري فتح أبواب الحوار مع وبين جميع من يؤمنون بالحوار، لأنه مطلب إنساني للمجتمع العالمي الإنساني، بغض النظر عن القوة السياسية أو الاقتصادية للأطراف. فلكل طرف خصوصيته في طرحه ومناحي قوته، والتكامل بين مختلف الأطراف هو سر النجاح، وإرادة الحوار والعيش المشترك هي المحرك الأساس.

ومع ذلك، فإن للسياسة، ولبعض رجالاتها، أحياناً كثيرة، يدهم العليا في تشويه كل هذه المحاولات، بل وتحويلها إلى صراع وصدام حقيقي، يزيد من المخاوف بين الأطراف. هذا طبعا من جانب الحضارة الرائدة، أما في الجانب الآخر، فالفعل الأولي – عند البعض –، وافتراض أن الآخر عدو، من حيث كونه مختلفاً! وعند البعض الآخر، هو رد فعل تجاه ما يرى من سياسات إقصائية له، ومؤامرات تحاك ضده، ونهب لثروات بلده، أو استفزاز لمعتقداته. وهؤلاء من الطرفين، أو مختلف الأطراف، هم المتطرفون الذين يأخذوننا في مسارات صدام الحضارات، وليس إلى الحوار بينها.

أنا شخصياً عندي أمل كبير بالمستقبل، ونسبة العقلاء والنشطاء المهتمين بالحوار الحضاري بين الحضارات في تزايد، كماً ونوعاً، وعلى مختلف المستويات. وأختم بمقولة أخرى للمفكر الفيلسوف (مالك بن نبي) حول استيراد الحضارة، إذ يقول: الحضارة لا يمكن استيرادها من بلد إلى آخر، رغم استيراد كل منتجاتها ومصنوعاتها. لأن الحضارة إبداع، وليست تقليداً، أو استسلاماً وتبعية، كما يظن الذين يكتفون باستيراد الأشياء التي أنتجتها حضارات أخرى. فبعض القيم لا تباع، ولا تشترى، ولا تكون في حوزة من يتمتع بها، كثمرة جهد متواصل، أو هبة تهبها السماء، كما يهب الخلد للأرواح الطاهرة، ويضع الخير في قلوب الأبرار.

* **الحوار: في الختام تتوجه المجلة بالشكر الجزيل للسيدين (محمد رشدي عبيد) و(عبد السلام مدني) على إسهامهما في هذا النقاش، وإغناء الموضوع بطروحاتهما القيمة❑**

دراسات

الكهنة المسيحيون وخدمة اللغة الكوردية



د. فرست مرعي

المقدمة

✍يظن الكثيرون أنه ليس لرجال الدين المسيحيين شأن يذكر في خدمة اللغة والثقافة الكوردية، على أساس أن جهودهم وإمكانياتهم تصب جميعاً في خدمة الدين المسيحي، والتراث السرياني، فضلاً عن أن اللغتين السريانية والكوردية تنتميان إلى عالمين مختلفين، هما: السامي، والهندو- إيراني (= الآري).

ولكن رغم ذلك، فإن للعديد من هؤلاء الكهنة (١) جهودٌ لا بأس بها في خدمة اللغة والثقافة الكوردية" جاءت في حقيقة الأمر نتيجة العيش في الوطن الواحد (كوردستان)، والمصير المشترك، وعشرات القرون من المحن والآلاَم التي ترتبت على تجاذبات الحياة تلك.

إذن فكوردستان هي موطن الجميع، وهي الحاضنة التي تحتضن جميع الأديان والقوميات والمذاهب، التي يتألف منها فسيفساؤها، والذي يضيف رونقاً وبهجة على جبال وهضاب وسهول كوردستان، مثلها في ذلك مثل الأزهار والورود العديدة الألوان، والمتنوعة الروائح، التي تضيف جمالاً على الطبيعة، مما يسر الناظرين.

وجدير بالذكر أن الكثير من الشخصيات الاجتماعية والفكرية والحزبية والدينية، من المسيحيين، يعدون أنفسهم من المنتمين إلى قوميات أخرى لا تمت للكورد بصلة، غير العيش المشترك والجيرة، مثل: الكلدانية، والسريانية، والآشورية، وهذا شأنهم، وخيارهم، ولهم الحق في ذلك، فالقومية شعور بالانتماء، ولا يستطيع أي كائن أن

يفرض ديناً أو قومية أو فكراً أو اتجاهاً محدداً على أحد {لا إكراه في الدين}. ولنضرب مثالاً على ذلك، فقد حاول النظام السابق أن يفرض التعريب على المسيحيين واليزيديين، ولكنه فشل في ذلك فشلاً ذريعاً، لأن المسيحيين لهم شعور بالانتماء خاص بهم، سواء أكانوا كورداً أو عرباً أو كلداناً أو آشوريين أو سريانيين، كما أن اليزيديين هم كورد أقحاح، لا يتناطح في ذلك عنزان.

المسيحيون الكورد

وفي خضم هذا الواقع المليء بالأشواك، يثير البعض سؤالاً، ولهم الحق في ذلك، مفاده: لماذا لا يوجد مسيحييون كورد، على غرار المسيحيين العرب؟ وقبل الإجابة على هذا السؤال بطريقة علمية أكاديمية، بعيداً عن العاطفة والآيديولوجيا، التي مع الأسف الشديد هي سمة الكثيرين من كتابنا ومثقفينا الكورد، على وجه التحديد، لا بد من القول إن هناك فرقاً بين الدين كمعتقد، وبين القومية كعرق. فالإنسان يستطيع أن يغير معتقده وفكره كما يحلو له، ولكنه لا يستطيع أن يتخلص من موروثه العرقي (= السلالي) بهذه البساطة حتى لو أنكر ذلك، لأن الصفات الوراثية التي ورثها من أسلافه ستبقى ملازمة له إلى نهايته.

نعم قد يتنكر الإنسان لأصله أو لعرقه بسبب ظرفٍ ما سلبي أو إيجابي، ولكنه لا يستطيع أن يكبح تلك العاطفة الحميمية تجاه بني جنسه، وللقاعدة شواذ.

وبخصوص الإجابة على السؤال السابق، يذكر المطران (أدي شير) (ت ١٩١٥)، في معرض النزاع الذي حدث بين الأساقفة بعد وفاة الجاثليق (يهبالا) سنة ٤٢٠م، وتولي (داد يشوع) الجثلقة، وحرمانه لعدد كبير منهم، مما حدا بهم إلى أن يشتكوه إلى الملك الفارسي الساساني (بهرام الخامس) (٤٢٠-٤٣٢م)، الذي ألقاه في السجن وضيق عليه، وحينئذٍ توسط سفير الملك البيزنطي (ثيودو سيوس) (٣٩٥- ٤٢٦م)، وتمكن من إخراج (داد يشوع) من السجن، لذا تقاطر عليه المعارضون له، ومن ضمنهم الأسقف (أرداق) أسقف منطقة (مشكنا دقوُردو)(٢) (مساكن الكورد - كوردستان) أو أسقف الكورد، وهذا دليل أكيد على أن مفردة (كوردستان) ترجع إلى القرن الرابع الميلادي، وهو أقدم وروداً من المصادر الإسلامية.

كما أن المستشرق الفرنسي المختص بالسريانيات (روبنس دوفال) يذكر في سير الشهداء والقديسين، أن هناك كتاباً باسم (الفردوس المفقود) لـ(داؤد) أسقف الأكراد(٣).

ولا حاجة لإيراد ما دونه المؤرخ الإسلامي الشهير (المسعودي) (ت ٤٣٦هـ/١٠٤٤م) حول وجود مسيحيين كورد تحت اسم اليعاقبة (المنوفستيين - أصحاب الطبيعة الواحدة)(٤)، وأشار إليهم الرحالة الإيطالي الشهير (ماركو بولو) (٥) في رحلته إلى (الصين)، حينما ذكر بأنه شاهد أكراداً نساطرة، وأكراداً يعاقبة(٦). والنساطرة كانوا متواجدين آنذاك في منطقة بهدينان وهكاري، واليعاقبة (= السريان الأرثوذكس) كانوا متواجدين آنذاك في منطقة طور عابدين - جبل العباد الزهاد (= المنطقة المحصورة بين جزيرة بوتان وماردين).

ولكن هذا لا ينفي وجود مسيحيين كثيرين ساكنين في كوردستان ينتمون إلى قوميات أخرى، فكوردستان كانت وستبقى تفتح ذراعيها لكل من



يريد العيش فيها، أو اللجوء إليها، لأن الكورد كانوا وما يزالون إنسانيين بكل المقاييس، رغم بعض المنغصات هنا وهناك، والتي لا يخلو منها مجتمع إنساني.

بداية ظهور الكرشوني الكوردي

الكرشوني: إن مصطلح "گرشونى/ Garshuni" يشير في الأصل إلى تلك النصوص العربية المكتوبة بالأبجدية السريانية. ومن الغريب بما فيه الكفاية أن شكل الكتابة السريانية الواسعة الانتشار كان لها بعض الأثر في أدب المجتمعات غير السامية في المنطقة: الأدب الفارسي، الأرمني، التركي، والكوردي. وهو استخدام الأبجدية السريانية في رسم لغة أخرى، أي بعبارة أخرى: كتابة الخط السرياني بأحرف لغة أخرى.

ولقد ظهر الكرشوني العربي في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، بعد الفتح الإسلامي لبلاد الشام، في عهد الخليفة الراشد الثاني (عمر بن الخطاب) (رضي الله عنه)، حيث بدأ تحديداً في المناطق التي كان الناطقون بالسريانية يتواجدون فيها، حيث فضلوا آنذاك استخدام حروفهم السريانية لكتابة اللغة العربية، بعد أن اتسع شمل الدولة الإسلامية، وأخذت اللغة العربية (لغة القرآن الكريم) تكتسح اللغات الأخرى من سريانية وقبطية ويونانية وبهلوية.

أما الكرشوني الكوردي، أي كتابة الخط السرياني بالكلمات الكوردية، فلا تعرف نقطة بدايته على وجه التحديد، أو في حقيقة الأمر لم يكن له وجود البتة، حسب ما كان يعتقد. ولكن بعد ظهور (مخطوطة أرادن) التي قدمها القس (فرنسيس داود) كاهن قرية (أرادن)، التابعة لقضاء العمادية في محافظة دهوك (٧) إلى مكتبة المتحف العراقي في ١٢/٩/ ١٩٧٥(٨)، تغيرت هذه القاعدة من الأساس.

وتكمن أهمية هذه المخطوطة في أن الناطقين بالسريانية، وخاصة الكلدان منهم، كتبوا أكثر من لغة بحروفهم السريانية. فقد كان يعتقد في السابق، أن الكتابة بالحروف السريانية، والنطق بلغة أخرى غير السريانية، وهو ما أطلق عليه (الكرشوني)، كان حِكراً على اللغة العربية، إلا أنه بعد هذا الكشف تبين أن الناطقين بالسريانية كتبوا نطق لغات أخرى غير العربية، مثل: الكوردية، كما



ذكرنا آنفاً.

والمخطوطة موضوعة البحث هي من تأليف الراهب القس (عبدالأحد عوديش بن خوشابا البقال الألقوشي)، أحد رهبان دير (الربان هرمزد)(٩)، وقد وضعها سنة ١٨٨٨م (١٠).

وغني عن القول إن الراهب القس (عبد الأحد عوديش)، كان خدم ككاهن (= قس) في عدد من القرى المسيحية في منطقة بهدينان، وبفضل ذلك أجاد اللغة الكوردية، فضلاً عن معرفته الواسعة باللغة السريانية: وبذلك تمكن من وضع هذه المخطوطة موضوعة البحث، التي أطلق عليها (مخطوطة أرادن)(١١).

تتكون المخطوطة من ٣٤١ صفحة، وهي مقسمة إلى قسمين: الأول ويضم ١٨٦صفحة، تتناول (صرف) الكلمات الكوردية ومشتقاتها ومعانيها باللغة السريانية، أما القسم الثاني فيتناول مقتطفات من الأناجيل الأربعة (١٢) باللغة الكوردية – لهجة بهدينان (= اللهجة الكرمانجية الشمالية)، ومرتبة حسب ورودها في (الإنجيل).

ويذكر الباحث الإيراني (مصطفى دهقان)، في مقالته (مخطوط سرياني كوردي من بغداد)، وصفاً للمخطوطة، نقلاً عن (بطرس حداد) و(جاك إسحاق)، في فهرستهما للمخطوطات السريانية: "إن مخطوطة بغداد المسماة "كْتَابَا دْ – تُورَاشْ مَامْلا كَرْتْوَايَا" أي، كتاب في قواعد اللغة الكوردية، مكتوبة بالإملاء السرياني باللهجة البادِينِية للكوردية الكرمانجية، منسوخة في (أرادن صابنا) (العَمّادية).

يتألف المخطوط من ١٧٢ رقاقة، وقياس كل رقاقة ٢٢,٥ × ١٦,٠ سم. يتشكل النص من ١٩ سطراً، لكل رقاقة مع غلاف مقوى. والمؤلف هو الأب (عبدالأحد ألقوش ابن عَبْدِيْشُو)، من القرن الـ١٩، وهو راهب (= رَبَّن)، ومار هُوْرْمِزْدْ، والذي ألف رسالة أخرى بعنوان "مواعظ دينية" في عام ١٨٩٧م. في الرقاقة ٢ف، يشرح المؤلف الهدف من الكتاب، ويؤرخ له: "إنني أدون كتاب قواعد اللغة الكوردية، الذي ألفه الأب الراهب والقسيس (عبد الأحد ألقوش)، ابن (عبديشو بن خُوْشَابا بَقّالا) وهو أحد رهبان ربّن ومار هورمزد في العام ١٨٨٨ للمسيح، بينما كان في المهمة الرسولية في الجبال..."(١٣).

ومن ثم يستمر العمل كي يتتبع أساسيات اللغة الكوردية. وفي سعيه لكي يقدم الأسماء الكوردية، يفتتح (عبلحد) القواعد بـ: "أولاً، الأسماء الاستفهامية المفردة، والجمع، والأجوبة"، التي تتضمن الحالات المطلقة، والمحدَّدَة، وأشكال الجمع. وبالنسبة إلى المفردات، فإن المؤلف، أو لاحقاً قارىء النص، يشير في الهامش إلى عدة

كلمات سريانية مشتركة في أصلها مع الكوردية.

أما الرقاقة ٩ف فتبدأ موضوعاً ثانياً، وهو الضمائر المستقلة، وتصريف الأفعال. وبحسب قوله يشتمل هذا القسم على تفاصيل عن:

"تصريف الماضي، والحاضر، والمستقبل، والمبني للمجهول، وحالة المصدرية".

القسم التالي (رقاقة ٨٠ر ف ف) يتعامل مع الأقوال الكوردية المأثورة. ففيما يتعلق بالفلكلور الكوردي، عمد (عبد الأحد) إلى كتابة بعض الأسئلة والألغاز الكوردية بالإملاء السرياني، مرفقة بترجمتها إلى السريانية. ويظهر التقسيم الرئيس والثانوي المتناغم لنص كل قول مأثور في قطع أصغر من الكوردية النقية، في الأمثلة التالية:

القول (الكوردي): "اثنان من الملالي في عمامة واحدة (= محاولة الاستهزاء بعلماء الإسلام من الكورد تحديداً).

اثنتا عشرة ناعورة في طاحونة، إحدى وخمسين قدماً في فردة حذاء واحدة".

التفسير (السرياني): "الشمس والقمر في السماء، ١٢ شهراً في السنة، واحد وخمسون أسبوعاً في العام".

وها هي الملاحظة الإفتتاحية في الرقاقة ٩٩ف: "ثم بحول وقوة ربنا، سنكتب بضعة فصول من أصحاب الأناجيل الأربعة في نفس اللغة، أعني: (متي) و(مرقس) و(لوقا) و(يوحنا)" من ترجمات (عبد الأحد) السابق ذكره".

وهي تتميز بغلبة جدية مقاصده، ورغبته الحماسية في جعل دراسة (الإنجيل) ذات حظوة كبيرة لدى القراء الكورد (= محاولة تنصير الكورد).

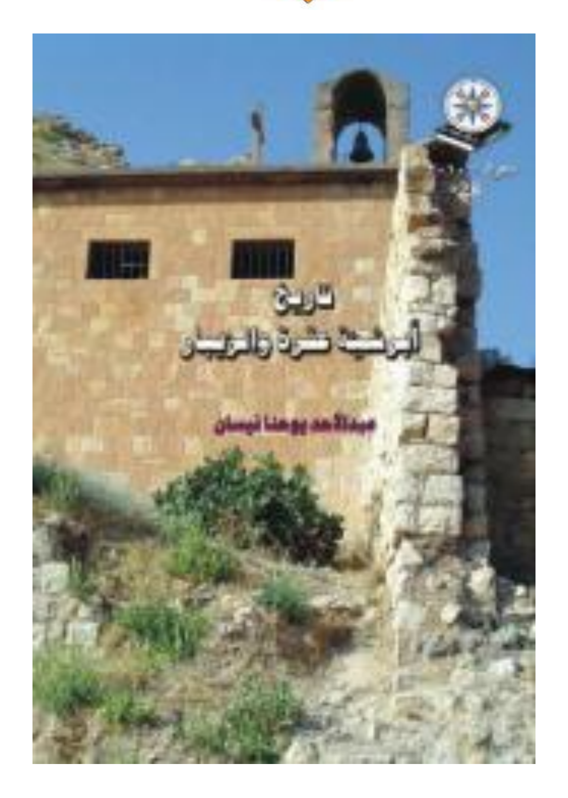
ومن الرقاقة ١٠٠ر إلى ١٥٧ف يقدم الأب (عبد الأحد) ترجمة كوردية لبضعة فصول من (يوحنا) و(لوقا) و(متي)، وأيضاً لأقسام من رسائل (بولس). في المحتويات، رقاقة ١٥٧ف، ينجح في إلتقاط روح بعض الترانيم من قيامة المسيح، التي ترجمها إلى الكوردية.

الرقاقة ١٦٨ر تقدم خاتمة مفصلة أكثر، والتي تقرب القارئ أكثر إلى التاريخ الدقيق لكتابة هذه القواعد: "في شهر آب، اليوم ٢٨، من سنة ١٨٨٨ لربنا، أثناء أيام قداسة البابا العظيم ليو (= ليون الثالث عشر ١٨١٠-١٩٠٣م) بابا كل المسكونة (= المعمورة)، والقديس إيليّا (= مار إيليا الثالث عشر عبو اليونان ١٨٧٨-١٨٩٤م)، بطريارك الكاثوليك في بابل، والقديس غيوارغيس (= كوركيس) الأسقف - مطران العمادية".

يتبين أيضاً من الخاتمة أن الناسخ الشماس (ألياس هومو) من (ألقوش)، قد كتب المخطوطة لكن برعاية الأب (عبد الأحد) نفسه(١٤).

تعليق الباحث

في اعتقاد الباحث أن كتابة الكرشوني الكوردي أقدم مما ورد في مخطوطة (أرادن)، التي ترجع كتابتها إلى سنة ١٨٨٨م.



إن تــــاريخ التقليــد الگرشــونى في الأدب الكوردي، المدون باللهجة الكرمانجيـة، مـن قبـل الكتاب السريان، والنشـط خاصـة في كوردسـتان العراق، من عام ١٨٠٠م فلاحقاً، يبدو أنـه كـان معقـداً جـداً، نتيجـة عوامـل متنوعـة، وجوانـب مختلفـة. في المسـألة الأولى لــ(مجلـة الدراسـات الكوردية) المحترمة، قدم (فيليب غ. كرينبروك) ما يعتبر ربما أفضل وصف حديث لما أصبح مساهمة أدبية كردو- سريانية مفيدة للدراسات الكوردية، بالطبع فإن النسخة الكوردية للنص، الذي أُنشئت مقالة (كرينبروك) علـى أساسـه، قـد نشـرها أول الأمر (مار يوليـوس يشـوع جيجـك) كجـزء مـن كتيب بالسريانية بعنوان (كافو د – هابوبي) (باقة من الزهور). وهـي تعـزى إلى المفريـان (= نائـب البطريرك) شمعون الثاني (١٦٩٥-١٧٤٠م) مـن بيـث مـنعم (= قريـة قديمـة تقـع في منطقـة طـور عابدين)، وهو كاتب غزيـر الإنتـاج في السـريانية والكوردية، ولا تزال أعماله تطبع في منطقة (طـور عابدين) في (كوردستان تركيا). وقد قدم الباحـث السـرياني (أسمـر خـوري) ترجمـةً إلى السـريانية لقصيدة كوردية لـ(شمعون الثاني)(١٥).

ومن جانب آخـر، فقـد كـان لجهـود القـس (يعقوب بن القس كـانون البـارزاني آل نجـار) في كتابة الكرشوني الكوردي، قصب السبق في هـذا المجال، على أقل تقدير في كوردسـتان الجنوبيـة (= كوردستان العراق)، وإلى أن تكتشـف مخطوطـات أخرى لا زالت طي النسيان.

إن المخطوطـات الـتي كتبـت بالكرشـوني الكوردي كانت محفوظة ضمن مخطوطات (أبرشـية عقــرة)، وهــذه الأبرشــية تم اســتحداثها ســنة ١٨٥٢م، حين قام المطران (= البطريرك) يوسـف أودو (١٨٤٧-١٨٧٨م) بتقســـيم (أبرشـــية العمادية)، المترامية الأطراف، إلى ثلاثة أبرشيات: عمادية، عقرة، زاخو، وتم تعيين (مارايليا سفرو) من أسرة آل أبونا الألقوشـية،- بعـد أن دخـل في نزاع مع المطران (أودو) (قبل انتخابه بطريركـاً)- مطرانــاً علــى (أبرشــية العماديــة) في زمــن عمــه البطريرك السابق (يوحنا هرمزد)(١٦).

وكان الأب المستشرق (جاك مـاري فوسـتي) الـــــــــــــــــــــدومنيكي Jacques-TE,O.P٣marieVO، قـــد زار (عقـــرة)، وسـكن فيهـا، مـن ٢٨ تشـرين الأول وحتـى ٣ تشـرين الثـاني سـنة ١٩٣٨م، وبمسـاعدة الأب (ميخائيـل إيشـوع)، الوكيـل البطريركـي علـى (عقرة) يومـذاك، والقـس (بـولص يونـان) تلميـذ معهد (مار يوحنا الحبيب) بـ(الموصل)، تمكـن مـن وضع فهرس مخطوطات (أسقفية عقـرة)، لا سـيما المخطوطات التي كانت تحتفظ بهـا كنيسـة عقـرة



وكنيسة قرية خربة (= غرب عقرة)، القرية التي يقع إلى جوارها دير(مار يعقوب)، الشهير بدير (بيث عابي – دير الغاب).

ونشر الأب المستشرق (فوستي) حصيلة عمله في مجلة (المعهد الشرقي) بـ(روما)، وبلغ عدد المخطوطات التي رآها (فوستي)، ووضع لها فهرساً، (٦٧ مخطوطة)، بينما بلغت المخطوطات التي فهرسها الأب الدكتور (يوسف حبي) (٩٦ مخطوطة) (١٧). ولعل أهم المخطوطات هي: مخطوطة العهد القديم، والعهد الجديد، وصلوات الطلب (= الباعوثا)، وغيرها من المخطوطات القديمة جداً من مخطوطات دير مار يعقوب (بيث عابي).

أما أهم المخطوطات، وأجملها، فهي ذات أصل ألقوشي، ولا عجب فقصبة (ألقوش) مدينة الخط السرياني الشرقي، ومعين غزير للمخطوطات(١٨).

وأهم المخطوطات التي تضم الكرشوني الكوردي، هي حسب الترتيب التاريخي:

١- مجموعة في التوبة، وفي أسرار الكنيسة، وفي الكهنوتية: يضم هذا المحتوى ٢٦ موضوعاً مختلفاً، في مواضيع مسيحية مختلفة. ولكن ما يهم موضوع بحثنا، الموضوع الأخير رقم ٢٦: فصل من (إنجيل متي) باللغة الكوردية، ومكتوبة بالكرشوني، وهو (إنجيل ماراسطفيانوس الطقسي). الورقة (١٤٧ب)، كاتبها القس (يعقوب بن القس كانون البرزاني آل نجار) (النجارين)، فرغ من كتابتها في ٣٠ تشرين الأول سنة ٢١٦٦ يونانية – ١٨٤٤م (هكذا، والصحيح ١٨٥٥م).

كتبت في (برزان) في أيام مار (يوسف أودو) الجاثليق بطريرك بابل. على الورقة ٥٥ نقرأ ما تعريبه: "تمت في ٢ نيسان سنة ٢١٦٦يو – ١٨٤٤م في (برزان)، على يد القس (يعقوب بن القس كانون البرزاني) من (آل نجار). على الورقة ٥٨": ملاحظة بالكوردية (١٩).

أما مخطوطات دير الآباء الدومنيكان بـ(الموصل)، فهي تضم عدة مخطوطات بالكرشوني للقس (داود بن يوخنان بن نيسان كوركو القرداحي البرزاني)، ولد (داود) في قرية تقع على نهر الزاب الكبير، قرب (بارزان)، في نهاية القرن الثامن عشر. وبدأ عمله في قرية (بارزان) في استنساخ الكتب. وفي سنة ١٨٢٧م حدث طاعون في منطقة (الزيبار)، امتد إلى (الموصل)، حيث هلك المئات من الناس، ومن ضمنهم عمه القس (حزيران)، الذي هو الآخر له كتابات بالكرشوني الكوردي، تعد الكتابة الأولى بالكرشوني الكوردي (٢٠)، حسب علمي.

وأهم هذه المخطوطات هي:

١- مديحة القس داؤد البرزاني للتوبة، باللغة

الكوردية (الكرشوني).

٢- مديحة بالكوردية الكرشونية عن الحسد والمحبة والمال، وقرب مجيء المسيح.

٣- مدراش (= مرثية) على موت ابنه (انطوان) في قرية (كانيفلا) (= غرب ناحية مريبا) في التاسع من آب ١٨٦٥مسيحية (ميلادية)(٢١).

كما يجب أن لا ننسى إسهامات الراهب (إرميا جبرائيل شامير) (جرمياس شامير) (الذي ولد في قرية (عينكاوة) عام ١٨٢١م، ودخل سلك الرهبنة في دير (الربان هرمزد) في (ألقوش)، في ٢٣ حزيران ١٨٥٩م، ثم تركها وعاد إليها، ثم تركها نهائياً، وعمل في (الموصل) مع المستشرق الألماني (أدوارد زاخاو)، المتوفى سنة ١٩٣٠م، وترك الكثلكة، واعتنق البروتستانتية، وبعد عمر مديد في تجارة المخطوطات، توفي في مدينة (الموصل) عام ١٩٠٤م، حيث ترك لنا عدة مؤلفات باللغات العربية والسريانية والكوردية(٢٢).

وما يهم موضوع بحثنا، فقد كتب (شامير) في سنة ١٨٨٣م معجماً باللغات الثلاثة: سورث (= سرياني محكي) - عربي - كوردي. وقد قام الباحث الإيطالي (بيتا كويني) بنشر قسم من هذه المخطوطة في (روما) سنة ١٩٧٦م.

كما أن لـ(شامير) معجم إنكليزي - سورث - كوردي باللهجة العينكاوية، كتبه وأكمله سنة ١٨٨٢-١٨٨٣م. وقد قام (مارك ليوزبارسكي) بترجمتها ونشرها، ويذكر الباحث المسيحي (عزيز نباتي) أن لـ(شامير) مخطوطات باللغة الكوردية(٢٣) أيضاً، محفوظة في Staatsbibliothek zu Berlin-Preußischer Kulturbesitz (مؤسسة التراث والثقافة في برلين) (٢٣)، لكن تم التعرف عليها ودراستها بالتفصيل فقط من عقود حديثة فلاحقاً، والبعض منها يحتوي أعمالاً فريدة متعلقة بهذا الحقل من الدراسات.

مما تقدم يبدو أن لرجال الدين المسيحيين، من الكهنة والرهبان، إسهامات عديدة في خدمة اللغة الكوردية: حرفاً ونحواً ومعجماً، ولكن لم يتسن -مع الأسف الشديد- الاطلاع عليها، نظراً لأنها مكتوبة في مخطوطات يتعذر الاطلاع عليها، ومدونة بالأبجدية السريانية، التي لا يستطيع الباحثون الكورد الاطلاع عليها وقرائتها، لعدم إلمامهم بهذه اللغة، التي كان لها دور لا يستهان به فيما مضى في العصور القديمة، وإلى حد ما في العصور الإسلامية❐

المصادر و المراجع و الهوامش:

١- الكاهن: وهو خادم دين، وفي اصطلاح (الكتاب المقدس) الشخص المختص لتقديم الذبائح. وطبقة الكاهن ورتبته من (كهنوثا)، كهنوت أي قدس قداسة، ومنها جاءت كلمة قس من القدس أي من القداسة، ولكن دغمت الدال فاصبحت الكلمة قس، وهو الكاهن. انظر: قاموس الكتاب المقدس ص ٧٩١" داود الجلبي، الآثار الآرامية في لغة الموصل العامية، الموصل، مطبعة النجم الكلدانية سنة ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م، ص.٧٨.

٢- تاريخ كلدووآثور، بيروت، ١٩١٣، ج ٢، ص١٢٠.

٣- تاريخ الأدب السرياني، ترجمة: الأب لويس قصاب، الموصل، ص١٦٨.

٤- مروج الذهب ومعادن الجوهر، بيروت، دار الفكر، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٣م، ج٢، ص١٠٤.

٥- ماركوبولو: رحالة إيطالي ولد سنة ١٢٥٤م في مدينة فينيسيا (البندقية)، ذهب إلى (الصين) في رحلة تجارية، استغرقت رحلته حوالي ٢٠عاماً، توفي

سنة١٣٢٤م.

٦- وليم مارتسدن: رحلات ماركوبولو، ترجمة: عبدالعزيز جاويد، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م، ص٣٧.

٧- أرادن: قرية كوردية تقع على سفح جبل (متين)، على علو ١١٤٠م فوق مستوى سطح البحر، تحيط بها بساتين مثمرة، وتسقيها مياه عيون صافية وعذبة. كانت مركز أبرشية بهدينان (١٩١٠-١٩٤٧م) ثم نقل كرسيها الكهنوتي إلى العمادية. أشهر مزاراتها هو مزار سلطان مهدوخت الشهير، يقع على بعد ٤ كم من القرية، ويتكون من صحنين حجريين طول كل منها ٢٤م، ويعتقد أن البناء يرجع إلى القرن الرابع الميلادي. وفي سنة ١٩٠٨م انشأت في أرادن (رهبنة قلب يشوع الأقدس) بجهود القس عبدالأحد ريس.

٨- أسامة النقشبندي: مخطوطة أرادن، الموصل، مجلة بين النهرين، العدد الثالث عشر، ١٩٧٦م، ص.٦٩

٩- الربان هرمزد: ولد الربان هرمزد في بيث لاباط (= شيراز الحالية) من إقليم فارس، من أبوين مسيحيين، وبعد أن تمرس (هرمزد) في الحياة النسكية ترك والديه قاصداً الأراضي المقدسة، وبعدة مسيرة ٣٧ يوماً وصل إلى مدينة (الموصل)، وفيها التقى بثلاثة رهبان من دير الربان برعيتا، الواقع شرقي قصبة كرمليس. بعدها قصد الربان (هرمزد)، مع زميله الربان (إبراهيم)، جبل ألقوش الحالي، حيث يقوم ديره منذ ذلك الحين من (القرن السابع الميلادي). وهناك في قلب الوادي وجد الاثنان ينبوع ماء ينساب بين الصخور (عيناد دقديشا: عين القديس حالياً) فسكنا في مغارة بجواره، ولكن الربان إبراهيم لم يمكث طويلاً مع رفيقه هرمز سوى ثلاثة أيام، ثم تخلى عنه وانتقل إلى شمال شرق قرية باطنابة، حيث بنى ديراً باسمه، أما الربان هرمزد فعكف على الاختلاء وإماتة الذات في هذا الوادي السحيق، وجاء العديد من التلاميذ للتنسك والزهد معه، بعدها توفي الربان هرمزد ودفن جسده في ديره. انظر: يوحنا جولاغ: دير الربان هرمزد، الموصل، مجلة بين النهرين، العدد الرابع، سنة ١٩٧٣م، ص٣٩٤-.٣٩٦

١٠- أسامة النقشبندي، المرجع السابق، ص.٧٠

١١- المرجع نفسه، ص.٧٠

١٢- وهي: إنجيل متى، إنجيل مرقص، إنجيل لوقا، إنجيل يوحنا.

١٣- بطرس حداد وجاك إسحاق: المخطوطات السريانية والعربية في خزانة الرهبانية الكلدانية في بغداد، ١٩٨٨م، ص ٣٥٧-.٣٥٨

١٤- مصطفى دهقان: مخطوط سرياني كوردي من بغداد...، ترجمه عن الإنكليزية: غياث حسين، http://www.medaratkurd.com/.

١٥- المرجع نفسه:

http://www.medaratkurd.com /.

١٦- د. فرست مرعي: بارزان وأنحائها في المصادر السريانية، دهوك، مجلة دهوك، العدد ٣٢، تشرين الأول، ٢٠٠٦م ، ص٨٤-.٨٥

١٧- فهارس المخطوطات السريانية في العراق، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، هيئة اللغة السريانية، بغداد، مطبعة المجمع العلمي العراقي١٩٨١م - ١٤٠١هـ، ج١، ص.٨

١٨- فهارس المخطوطات السريانية في العراق، ج ١، ص.٩

١٩- د. فرست مرعي: بارزان وأنحائها في المصادر السريانية، ص٨٥-.٨٦

٢٠- عزيز عبدالأحد بناني: تاريخ عينكاوة، راجعه وقدم له، الأب البير أبونا، أربيل، ٢٠٠٠م، ص .٢٣٠

٢١- الأب الدكتور بهنام سوني: فهرس مخطوطات دير الآباء الدومنيكان، الموصل، منشورات المركز الثقافي الآشوري، دهوك، نيسان ٢٠٠٥م، ص ٧٤-.٧٥

٢٢- عزيز نباتي : تاريخ عينكاوة، ص .٢٣٤

٢٣- المرجع نفسه، ص٢٣٤.

من (العراق) إلى (فارس).. تتبع التحولات الثقافية

من خلال مخطوطة (عجائب المخلوقات) للقزويني المؤرخة في 1322م*



ترجمة: عمر جاسم محمد

مقدمة المترجم:

الفن أرّقُ من أن يختصر بكلمات، فهو يعبر عن ماهيته ذاتياً، يترك الباب مواربأً لكل التفسيرات، يختبر قدرات الإنسان في فهم إنسانيته، والفن تعبير صريح عن قيمة وجودية لم يستطع أحد أن يستغلها أو يسيرها لصالح اتجاه واحد، فعقد التسيير ينفرط ما أن يطلق الفنان العنان لمخيلته، هو قوة الخيال وحقيقة الوجود.

والفن يتجاوز كل الحدود والحواجز دون أن يخدش ملامح الآخر، يمر عبر مسالك شفافة، يقتفي أثر من يتلقاه، والفن تحليق بالذات نحو فضاءات بعيدة جداً، وربما يصح أن أسميه هنا "اللحظة البريئة للشعوب".

وليس غريباً هذا على الأذهان، ألم تصف البشرية أربابها بوصف (الفنان العظيم)، والفن من ثم تعبير عن الكليات الوجودية من مخلوقات حية وجامدة، حتى الحجارة فن عظيم لا يقل قيمة عن لوحة ينجزها فنان، وكذا الرياح فنان عبقري حين تنحت بريشة ذرات الرمال أروع اللوحات على قمم الجبال.

هذا كان أهم دافع وراء ترجمة ورقة بحثية قد تكون موجهة للقارئ الأكاديمي أكثر من القارئ العابر، لأن ارتباطها لا يتعلق – فحسب – بحقيقة أن التاريخ ليس مهنة يستطيع أي امرئ مزاولتها، لكن التاريخ يشكل موروثاً وعقائد وتداخلات وجدليات تعيش على آثارها الشعوب، وتغذي مروياتها وسردياتها الأدبية والاجتماعية، فالتاريخ خبز الشعير وكافيار الأرستقراطيين، لهذا يمكن وصف بحث كالذي بين أيديكم بأنه وسيلة لإعادة فهم تاريخ اختزل بثنائية الصراع حول النفوذ وحول أحقية كل طرف بالأرض، ثنائيات استقت كل واحدة منها سمات الأخرى.

هنا أتحدث عن الارتباط الوثيق بين بلاد فارس وبلاد الرافدين، ولست أنوي أن أسبغ طابعاً رومانسياً على تلك العلاقة، ولكن ما يطرحه (القزويني) في مخطوطته (عجائب المخلوقات) يثير العجب عن مدى التقارب بين (العراق) و(فارس)، وكيف ساهمت العيون – دون استحضار تاريخ مزيف – في ترسيخ علاقة بين فئة من العلماء، يدور فكر الصراع كله حولها. و(فارس) ذاتها ساهمت في رفد الإسلام والمسلمين بأسلوب فن تمازج مع رؤية العرب التي تهيم في ملكوت السماوات، ولا يصح هنا أن نعطي الميزة لأحد دون آخر، فالحضارات تنشأ فقط حين تمتزج في روحها الثقافات، وروح الحضارة هو الامتزاج.

في هذه الورقة البحثية محاولات جدية لفهم التاريخ عبر الفن، فن المخطوطات المصورة الذي أبدع فيه (القزويني)، ولم تكن المعلومات التي أوردها في مخطوطته عن المخلوقات لتكتفي بذلك، بل تعداها ليكتب لنا، ونحن نقرأ في هذا العالم اليوم، عالم الأحادية الفكرية، صوراً رائعة تخاطب الجمال في أرواحنا بصوفية مرحة وموسيقى عذبة.

✍ تقدم هذه الورقة مخطوطة (مغمورة) – لكنها مثيرة – محفوظة في (مكتبة السليمانية) في (اسطنبول)(١)، مؤرخة في ٧٢٢هـ/١٣٢٢م، وهي مخطوطة عربية مصورة: (عجائب المخلوقات، وغرائب الموجودات) للقاضي والعالم الفارسي (أبو عبد الله بن زكريا بن محمد بن محمود القزويني)(٢).

تتألف المخطوطة من ١٨١ ورقة، فقدت منها ١٢ ورقة، وتحتوي على ٤٦٢ لوحة، مرسومة بالأسلوب الذي كان سائداً في المنطقة الجنوبية من بلاد فارس في ظل حكم الإينجويين** التابعين للمغول الإيلخانيين (١٣٢٥-١٣٥٣)، وكانت المخطوطات الملحقة برسومات سمة من سمات تلك الحقبة والمنطقة(٣).

ما تثيره هذه المخطوطة ليس فقط باعتبارها مبكرة، بل، الحقيقة إن أهميتها

القصوى تكمن في الأسلوب الفني الذي يشكل صفحاتها، والذي نشأ في المناطق المتداخلة بين (العراق) و(فارس)، ما يشير إلى وجود ارتباط وثيق، خلاف الفهم المعاصر للصراع العربي – الفارسي.

وهذا يثير تساؤلات مهمة حول جمهور نمط الكتب المصورة، المسمى (الإينجو) بشكل خاص، وعن الجغرافية الاجتماعية لفنون الكتب في إيران و(العراق)، في هذه الفترة بشكل عام، لذا فإن المخطوطة تتيح إمكانية تتبع التحولات الثقافية العميقة التي حدثت في الشرق الإسلامي، في القرن ما بعد الغزو المغولي لـ(بغداد) عام ١٢٥٨.

إن التأسيس العلمي لمعرفة التأثيرات التي أحدثها المغول على التاريخ، على مجمل تاريخ المخطوطات الإسلامية، يستند إلى المقارنة بين المخطوطات، وأثرها في الحياة الثقافية قبل الفتح المغولي لـ(بغداد)، مع المخطوطات التي نشأت في فترة حكم المغول الإيلخانيين، وغزوهم لـ(تبريز).

في مرحلة ما قبل الفتح، كانت معظم المخطوطات المصورة مكتوبة باللغة العربية، تهتم غالباً بدراسة الطبيعة، وهي موجهة للنخبة الثقافية وليس السياسية. واللوحات في هذه المخطوطات – غالباً – هي رسوم توضيحية، ومصنفات للكائنات، لإكمال التصور عن النص المكتوب.

أما بعد الفتح، فمع استمرار ذات النمط، إلا أن هناك اهتمامات جديدة ظهرت في المخطوطات، وتظهر بشكل جلي في المخطوطات المكتوبة بالفارسية، التي تحكي التاريخ والملاحم، وهي موجهة للنخبة السياسية، وبشكل خاص البلاط المغولي، ومع هذا التحول النصي، يظهر أيضاً التحول الصوري.

لذلك، فإن تأثير الغزو على المخطوطات يتضح من مجموعة عينات تتراوح بين اللغة، الموضوع، الجمهور، نوع اللوحة، ويشار إلى القيمة المعرفية لها في التحول، ضمن حدود تاريخ فن المخطوطات الإسلامية المصورة، بأنه متلائم مع حقيقة أن الغزو المغولي يعتبر (اللحظة التاريخية) التي صادفت الانقسام بين نوعين الكلاسيكيات القديمة لهذا المجال: كما وضحها كل من (Richard Ettinghausen) في كتابه (Arab Painting)، الذي يتتبع المخطوطات بعد غزو بغداد، و (Basil Gray) في كتابه (Persian Painting)، الذي يبدأ مع الرسم في (إيران)، تحت حكم المغول(٤).

بينما كان مستوى المخطوطات المصورة ما بعد المغول، يعّرف بالإحالة إلى المخطوطات التبريزية، فإنه من الثابت أيضاً أن هناك مراكز مهمة لصناعة المخطوطات المصورة في (العراق)، وفي المنطقة الجنوبية لـ(فارس)(٥).

والمخطوطات، في كلا المنطقتين، كانت تختلف تماماً عن تلك التي انتجت في (تبريز)

الإيلخانية، وفي كلتا الحالتين، قد يكون هذا تفسيراً لحقيقة أنه على الرغم من أن كلتا المنطقتين كانتا رسمياً ضمن النطاق الإيلخاني، إلا أن السلطة الإيلخانية لم تؤسس لها بلاطاً في أي من تلك المناطق (العراق)، جنوب (فارس) (٦)، بل كان (العراق) رسمياً مقاطعة إيلخانية، وبالتالي فإنه يدار ضمن الإدارة المحلية الخاصة به، في حين كانت (فارس) تدار بشكل غير مباشر من قبل الأسرة الإنجوية، التابعة للسلطة الإيلخانية.

على الرغم من هذا التشابه، فإن التواصل بين علماء (العراق) و(فارس)، كان يختلف تماماً حين يتعلق الأمر بتمركزهم حول التأثير المغولي الشامل على إنتاج المخطوطات وسماتها. فـ(العراق) من ناحية، يعتبر مركز التحول، ومن بين المخطوطات المنتجة هناك، وجد العلماء نماذج كان من شأنها أن تنهي الفراغ وبناء جسور التواصل لمرحلة علماء ما قبل الفتح العلمي العربي، وما بعد الغزو الفارسي، في مخطوطات الملاحم والتاريخ(٧). أما (فارس)، من ناحية أخرى، فقد نُظر إليها على أنها نقطة تماس مهمة في تاريخ المخطوطات المصورة الإسلامية، فما أنتجته (فارس) من مخطوطات مصورة لم يتم النظر إليه على أنه اتصال مباشر مع سياق المخطوطات العربية ما قبل المغول، أو مرحلة ما بعد السياق الفارسي في الرسم، لأنها تطورت بعد انهيار الإمبراطورية الإيلخانية(٨).

القيمة الحقيقية لمخطوطة (القزويني)، التي نشأت في العصر الإنجوي، تبرز سؤالاً مهماً إلى الذهن: ما هو الأثر الفعلي للغزو المغولي على نمط المخطوطات الإسلامية المصورة؟.. في السطور القادمة سأبين الإجابة على هذا السؤال، وسأحاول العودة إلى جذور ومصادر المخطوطات الإنجوية، عبر تتبع سلسلة التطور في إنتاجها، آخذاً بنظر الاعتبار أهمية تاريخ ١٣٢٢، الذي أرخ به (القزويني) مخطوطته. وحتى نصل إلى أصول تلك المخطوطات، لعل من المفيد أن نقترح ثلاثة استنتاجات: الأول: لا ينبغي النظر إلى المخطوطات الإنجوية فقط عبر أصولها الإيلخانية، بل أيضاً من خلال المخطوطات المصورة العربية، التي نشأت وازدهرت في (العراق). ثانياً: إن الروابط بين إنتاج المخطوطات الإيلخانية في (العراق)، وبين تلك التي نشأت في عهد الإنجويين في (فارس)، في القرن الثاني عشر، تعطينا تلميحاً قوياً أن جمهور هذه المخطوطات قد لا يكون النخبة الحاكمة، بل ربما يكون الجمهور هو فئة العلماء التابعين للنخبة الحاكمة. الثالث: إن مخطوطة القرن الثاني عشر ١٣٢٢ تعد بمثابة جسور بصرية ولغوية وفكرية، ومقاربات اجتماعية، نستطيع بموجبها تحديد التحولات في فنون الكتاب ما قبل وما بعد الغزو المغولي.


Fig. A. Raksh slays the lion. Firdausī, Shāhnāma. Shiraz, 731 (1330–31). Istanbul, Topkapı Palace Museum Library, H. 1479, fol. 30v (Courtesy of the Topkapı Palace Museum).

هكذا يمكن القول إن المخطوطات المصورة تقدم وجهة نظر جلية عن التطور الذي حصل في إقليم (فارس)، ما جعله مركزاً لنقل التأثيرات إلى (العراق).

الأسباب الكامنة وراء إسناد أصل المخطوطة للنمط الإنجو – فارسي، قائم من جوهر المخطوطة ومظهرها، لأن المخطوطات الإنجوية غالبها كانت باللغة الفارسية(٩)، في حين أن مخطوطة (المقريزي) باللغة العربية، ولا تعطي معلومات النسخ مكان إنتاج المخطوطة، لكننا نجدها فيما أنتجه بتاريخ ٧٢٢ هـ /١٣٢٢ م، الناسخ (محمد بن مسعود بن محمد بن محمود الهمداني) (الشكل ١) (١٠). ورغم الأضرار التي لحقت بالورقة التي دون فيها، يمكن قراءة أن الكاتب نفسه كان قد نسخ مخطوطة أخرى لـ(القزويني) بتاريخ ١٣٢٩، ومخطوطات أخرى، وأهمها مخطوطة (آثار البلاد) للقزويني، الموجودة الآن في (المتحف البريطاني). وقد أرجع الباحث (Elaine Wright) مخطوطة لندن إلى الإنجو – فارس، استناداً إلى المصورات التي تحتويها. والحقيقة إن الناسخ نفسه عمل على المخطوطتين كلتيهما، وهذا يقدم مؤشرات قوية على أن مخطوطة ١٣٢٢ للقزويني، من المرجح أن تكون انجوية، ونمط اللوحات يؤكد أن مصدرها من النسق الإنجوي(١١)، كما أن اللوحة المواجهة لعنوان الكتاب، رغم وجود ألوان كثيرة عليها، إلا أنها تشير بوضوح إلى أصولها الإنجوية، مقارنة مع المخطوطات الأخرى التابعة لذات النسق (انظر الشكل ٢)(١٢).

فضلا عن ذلك، فإن الكثير من الرسومات التوضيحية في مخطوطة القزويني، المؤرخة بـ ١٣٢٢، تحتوي على خلفيات، فيها إشارات لارتباطها بنمط اللوحات الإنجوية.(فيها إشارات تدل على ارتباطها)

وهذه الخلفيات الغامقة هي سمة مميزة، لكنها ليس مقتصرة على اللوحات الإنجوية في تلك الفترة. وجدير بالذكر أن اللوحات في مخطوطة القزويني، المؤرخة بـ ١٣٢٢،

الموجودة في المكتبة السليمانية، تتشارك في نفس العناصر (مثل: سيقان النباتات). (حول تفاصيل اللوحات في تلك المخطوطات الإنجوية الأخرى، المؤرخة بـ ١٣٣٠-١٣٣١، انظر الشكل ١ و ٣ و A)(١٣).

والأكثر لفتاً للنظر، رسم طائر العنقاء في مخطوطة القزويني، المؤرخة بـ ١٣٢٢، في المكتبة السليمانية، يشبه طائر السيمرغ (الأسطوري)، الموجود في المخطوطات الإنجوية الأخرى (انظر الشكلين ٤ و B). وهنا يمكننا الاستنتاج بما أن العنقاء والسيمرغ كلاهما يمتلكان قدرة حمل البشر والطيران بهم، فيمكن القول إن عملية التصوير استندت إلى ذات الفكرة، أي وجود تماثل في التخيل، مع إرجاع ذلك إلى أصل واحد بين الإقليمين: (العراق) و(فارس). ولاحظ كل من Marie Lukens Swietochowski و Stefano Carboni أن تطور التصور الإنجوي حول طائر السيمرغ، لم يكن مستمراً على طول تاريخ الرسم الفارسي(١٤).

يتشكل مظهر السيمرغ على هيئة طائرة طويل أنيق ورشيق، ويستمد هذا المظهر من طائر الفينيق الصيني (Fenghuang)، وأقرب وقت لظهوره في اللوحات الفارسية بتاريخ ١٣٠٠. على خلاف مظهر العنقاء والسيمرغ الإنجوي، الذي يبدو بجسد مختصّر، وضخم نوعاً ما، مثل البوم متعدد الألوان الضخم(١٥).

ولا تحتوي المخطوطة على إهداء، رغم أن اثنين من النقوش في صفحة الغلاف الداخلي تحدد مالكين محددين، لكن يبدو أنها لا تتعلق بمرحلة إنتاج المخطوطة، وليس لها علاقة بالتاريخ المبكر للمخطوطة. مع ذلك، فإن عملية التثاقف في النصوص والمصورات، التي أدت إلى إنتاج هذه المخطوطة، واضحة على غير العادة، وهذا مفيد من ناحية أن إنتاج المخطوطات – على خلاف هذا العصر الذي نعيشه، والذي يسهل إنتاج وتنسيق الكتب المطبوعة والرقمية – فإن مخطوطات تلك المرحلة تتطلب الاتصال البشري المباشر، لترتيب وصول نماذج كثيرة للمخطوطة، من أجل ظهورها بشكل أكثر دقة. وبالتالي، فإن النظر بعناية إلى عمليات التثاقف، التي أدت إلى إنتاج مخطوطة القزويني، المؤرخة بـ ١٣٢٢، تقدم لنا بعض التلميحات الهامة المتعلقة بالوسط الاجتماعي الأصلي(١٦).

يمكن القول هنا، إن عملية التثاقف هذه تبدأ بالنظر إلى المخطوطة المؤرخة الوحيدة المتبقية التي اكتملت في حياة المؤلف، والموجودة في (ميونخ)، كان قد أكملها (القزويني) بتاريخ ١٢٨٠، وقد أغفلت هذه الحقيقة في مقال إعادة كتابة سيرة (القزويني)، في دائرة المعارف الإسلامية Encyclopedia of Islam، مما يوحي بأن (القزويني) كان قد ترك (واسط)، وترك



Fig. B. Sām sees Zāl with the Sīmurgh. Firdausi, *Shāhnāma*. Shiraz, 742 (1341). Dispersed. LNS 36 MS, The al-Sabah Collection, Dar al-Athar al-Islamiyyah, Kuwait National Museum. Recto (Courtesy of the Dar al-Athar al-Islamiyyah).

منصبه كقاض، بعد اجتياح المغول لـ(بغداد)، ودحرهم العباسيين عام ١٢٥٨(١٧).

على أن هناك دراسات نشرت مؤخراً، تستند إلى الإشارات المتناثرة في (آثار البلاد) للقزويني، وجزئياً على مصادر أخرى، مثل: (الحوادث الجامعة) لـ(ابن الفوطي)، تشير إلى أن (القزويني) بقي في (واسط) حتى عام ١٢٨٠، كما أشارت Syrinx von Hees(١٨). إضافة إلى أنه كان لا يزال قاضياً هناك، وكان أيضاً أستاذاً في مدرسة الشرابي الشافعي في (واسط). وتجادل (فون هيس) بأن مخطوطة ١٢٨٠ كانت على الأرجح هي نسخة التدريس الخاصة بـ(القزويني) (النسخة الشخصية). ويجدر القول هنا أن توصلها لهذا الاستنتاج جاء بعد تركيزها المبالغ على حقيقة أن (القزويني)، في هذه الفترة، كان يشار إليه باسم (مولانا)، أي: المعلم. كما أن أدلة أخرى تشير إلى نفس الاستنتاج(١٩)، ولعل أكثرها أهمية، هو ظهور اسمه ولقبه على الورقة الأولى الملونة، بجانب أسماء المُهدى لهم، والمهدي، وغيرهم من مالكي المخطوطة الآخرين، والتي عادة ما تكتب بعد الانتهاء من نسخ المخطوطة في المرة الأولى، ومكتوب على الورقة الأولى (أ)، مقابل خلفية مرسوم عليها سعف نخيل: زكريا بن محمد بن محمود القزويني الكموني: قاضي واسط (العراق) وأعمالها(٢٠).

تمنحنا مخطوطة واسط ١٢٨٠ وصفاً دقيقاً ومعقولاً للسياق الاجتماعي للمخطوطة، فقد كانت هذه المخطوطة تقرأ من قبل القزويني وطلابه، وليس من النخبة

السياسية، أو رجال الحكم وأمراء القصر. فالقزويني نفسه كان قاضياً وأستاذاً في مدرسة الشرابي، وهو عضو في النخبة المثقفة، ومرتبط مؤسسياً بالبيروقراطية الدينية والتعليمية في (واسط)(٢١).

ورغم أن (واسط) قد شهدت أوج تطورها في مجال المعرفة في العصر الأموي، إلا أنها بقيت لوقت طويل ذات أهمية كبيرة، وتكاد (بغداد) لا تذكر مقارنة بـ(واسط)، كان اقتصادها يجعلها شبيهة بـ(شيراز) في تلك الفترة، وكانت دوماً محط أنظار العلماء من جميع أنحاء العالم الإسلامي(٢٢).

وباعتباره قاضياً وأستاذاً، فقد كان (القزويني) من أبرز المثقفين في المدينة، وأكثرهم شهرة، وربما من المعقول أن نفترض أن كثرة العلماء في المدينة، وازدياد معدلات وفودهم إليها، ربما قد دفعته لتركها(٢٣).

ومن بين من رأوا مخطوطة واسط ١٢٨٠، كانوا نساخاً لجذاذات عربية لمخطوطة (عجائب المخلوقات) للقزويني، والموجودة الآن في مدينة (غوتا) الألمانية. وقد عثر على هذه الجذاذة، وهي غير واضحة نوعاً ما، ولكن يلاحظ (كاربوني)، أن هذه الجذاذة قد نسخت استناداً إلى مخطوطة (القزويني)، التي تحدثنا عنها قبل قليل، أي مخطوطة (واسط) ١٢٨٠، والموجودة الآن في (ميونخ)(٢٤). رغم وجود اختلافات جذرية في نمط التصوير، إلا أن مقياس التخطيط، ومساحات الصورة المتداخلة مع النص، متطابقة. توضح مخطوطة ١٣٢٢ منشأ وأصل جذاذة (غوتا)، إذ أن اثنتين من المخطوطات تشتركان بعدد من الصور، التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً، وتشير إلى أصل واحد (الشكلان ٥ و ٦). وتعزو (كارين رووردانز) جذاذة (غوتا) إلى (شيراز) الانجوية، في عام ١٣٤٠، رغم أن (ستيفانو كاريني) كان قد علق في وقت لاحق: أنه يشعر ربما تكون الجذاذة أقرب إلى مخطوطة واسط ١٢٨٠(١٤) ، وربما أقدم، وقد ألحق إسنادها هذا ما ورد في فهرس غوتا للمخطوطات الشرقية. وتوضح مخطوطة ١٣٢٢ أن كلاً من (رووردانز) و (كاربوني) على حق، فالأولى محقة بمكان المخطوطة، والثانية بتاريخها.

ونستطيع الآن أن نلخص العلاقة بين المخطوطات الثلاثة، أولاً: إن نسق جذاذة (غوتا) يعود إلى مخطوطة (واسط) ١٢٨٠، رغم أن النسق في مخطوطة ١٣٢٢ يختلف عن كلتيهما، والكثير من صور المخطوطة متقاربة جدا لتلك الموجودة في جذاذة (غوتا)، ما يجعل المقارنة المباشرة ممكنة جداً. وبالتالي، فإن مخطوطة واسط ١٢٨٠ اعتبرت المرجع الأساسي لنسّاخ جذاذة غوتا، التي أصبحت بدورها مرجعاً لنسّاخ مخطوطة ١٣٢٢. وبالضرورة فإن جذاذة غوتا هي المخطوطة الثانية في عملية التثاقف، لأن

نسقها استند إلى مخطوطة قد انتجت في وقت سابق من مخطوطة ١٣٢٢. ورغم عدم العثور على أية مخطوطة مصورة إنجوية مؤرخة بما قبل ١٣٣٠، إلا أنه من المعروف أن مجلدات مصورة قد أنتجت في (فارس)، تحت الحكم الإنجوي، في بواكير ١٣٠٨(٢٥).

من غير الدقيق أن نشير إلى الأسرة الإنجوية، باعتبارها سلطة حاكمة مستقلة لها بلاط، قبل تاريخ ١٣٢٢. فقد كان سادتهم الإيلخانيون هم من أرسل الأسرة الإنجوية لإدارة ولايات (إنجو) في (فارس) عام ١٣٠٣، ولم يبدأوا ببسط نفوذهم واستقلالهم وإبراز مظاهر هذا الاستقلال بتأسيس بلاط حكم حتى منتصف عام ١٣٢٠، ثم اتجهوا للاستقلال الكامل في عام ١٣٣٠، واستقلالاً ناجزاً في ١٣٤٠(٢٦).

كان النمط المعتاد في هذه الفترة، أن الأسر التي نشأت وتأسست بعد الغزو، عملت بشكل مباشر مع البيروقراطية الدينية المحلية، التي كانت تلعب أدواراً رئيسة مسيطرة فعلياً قبل الغزو. وفي بداية تعيين الأسرة الإنجوية لإدارة المقاطعات، ضمن السلطة الإيلخانية، كان موقفهم السياسي ضعيفاً مقارنة بالعلماء (البيروقراطية الدينية) المحليين، والذين بدورهم لعبوا دوراً جوهرياً في إدارة المقاطعات.

لم يكن لأسرة الإنجو أن تدير مقاطعات الإيلخان، دون العمل مباشرة مع البيروقراطية المحلية، والدينية بشكل أساس، فقد كانوا يفتحون الآفاق للإنجو مع السكان المحليين، من أجل تجنيدهم لصالح الإنجو، وبسط سلطتهم، وفرض الطاعة للأسرة. وقد كانت هذه الطبقة الدينية في (فارس)، مماثلة لتلك التي انتمى إليها (القزويني) في (العراق)(٢٧).

لذا، يمكن للمرء أن يتخيل بسهولة عدداً من السيناريوهات الممكنة، التي أدت إلى إنتاج جذاذة (غوتة)، بعد جيل من إنتاج مخطوطة (ميونخ). والأطراف الفاعلة، من حيث المبدأ، في جميع هذه السيناريوهات، ستكون "فئة العلماء والفئة البيروقراطية في (العراق)، ونفس الفئة في (فارس)، وأعضاء الأسرة الإنجوية، الذين يعتمدون على تلك الفئة، فمن المحتمل جداً أن علماء كلا المنطقتين (فارس) و(العراق) كانوا يزورون بعضهم، سعياً وراء المعرفة، وتدارس الكتب، المتوفرة في مكان دون آخر، ونشر كتبهم الخاصة، وجلبها معهم في ترحالهم، لنقلها من مناطقهم لتلك المناطق"(٢٨).

فمن السهل أن نتصور أن عالماً من (فارس)، أو (العراق)، قد درّس مخطوطة ١٢٨٠ مع أحد مواليه، بعد عقود من وفاة (القزويني)، ومن ثم جلب نسخة من نصه، الذي كان يتدارسه، إلى (فارس). وهذا ما يتضح لاحقاً، فإذا كان مالكها الأول عالماً / بيروقراطياً، فقد تكون المخطوطة، أو لا

تكون، قد مرت إلى ملكية شخص يحسب على البلاط الإنجوي، والذي يعتمد اعتماداً كبيراً على تلك الفئة، في ذلك الوقت. وبالنظر إلى أن الأسرة الإنجوية لم تنشأ كبلاط مستقل في الحكم، في ذلك الوقت، فلا يمكن عزل ارتباطها عن طبقة العلماء / البيروقراطيين المحليين بأي حال، فإن التمييز بين الطبقتين يكون محدوداً جداً(٢٩).

والقصد من هذا، أنه من المنطقي أن نفكر أن القراء الأصليين لجذاذة (غوتة)، كانوا مرتبطين بالفئة العلمية / البيروقراطية، أكثر من مجرد حصرهم بالارتباط مع الاتصال المفترض بالأسرة الإنجوية.

وكما أشرنا سابقاً، كان جزء من جذاذة (غوتة) نموذجاً واضحاً لمخطوطة (السليمانية)، والمقارنة بين مخطوطتين لا تزالان موجودتين، تعتبر مفيدة جداً، وتكشف عن وجود عدة مجموعات من اللوحات، المتماثلة من حيث التراكيب البنيوية، ما يعتبر دفعاً مباشراً لوضعها في موقف المقارنة. إلا أن هناك تمايز بين معظم الرسوم التوضيحية، والتي تختلف بشكل ملحوظ عموماً بين المخطوطتين، والتي تتبع النمط الذي أشارت إليه Ada Adamova حول مخطوطات القرنين الرابع عشر والخامس عشر، إذ أظهرت – ببراعة– أن تكرار التراكيب الصورية يمكن اعتباره مثل التناص في الشعر، ومع ذلك، فقد اكتشفت أن هناك آثار ضمنية للتكرار التركيبي في كلا التصور الإنجوي وتصور القزويني حول نشأة الكون.

قادت عملية التثاقف بين (العراق) و(فارس)، (القزويني) لانتاج مخطوطته المؤرخة بـ ١٣٢٢، كما يتضح جلياً من وجود علاقات اجتماعية، انطوت على تسلسل هرمي للتثاقف فيما بين المنظور الإنجوي ومنظور القزويني حول نشأة الكون. ومن ثم تحدد المراحل اللاحقة على انتاج المخطوطة الإنجوية، معالم الدوائر الاجتماعية التي كانت تهتم بقراءة مخطوطة القزويني ١٣٢٢، أي تحديد الجمهور الفعلي لتلقي ذلك النمط من المخطوطات.

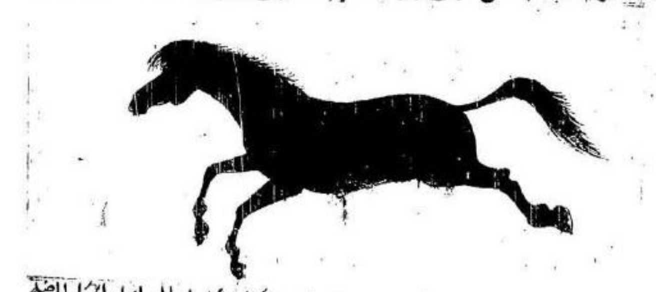
كان اكتشاف هذا التعامل، من قبل جمهور قراء نمط (القزويني)، متأخراً بعض الشيء، فقد جرى بين عالمين فكريين وفنيين مختلفين جداً، هيمنت عليها نصوص مختلفة، ارتبطت طبيعة إنتاج المخطوطات فيها بالتقاليد السائدة في المنطقة. لكن نص (القزويني) أوجد صدى كبيراً داخل هذا الفضاء المتباعد، فانعكس ذلك في رسومه التوضيحية لمخطوطته المؤرخة ١٣٢٢. كان أحد العوالم، كما أشرت من قبل في مخطوطة واسط ١٢٨٠، قد نشأ فكرياً، وتطورت بيروقراطيته الدينية المحلية قبل الغزو المغولي، واستمرت لتعلب دوراً هاماً في أعقاب الغزو. أما الطرف الآخر، فكان قد نشأ في مرحلة

الإنجو، في صعود العالم السياسي، وارتفاع البلاط التركي – المغولي، الذي مارس السلطة في أوائل القرن الرابع عشر، كالإيلخانيين، ومرحلة منتصف ١٣٢٠، حيث بدأ الإنجويين ببسط نفوذهم.

ومخطوطة (واسط) ذاتها، تشكل دليلاً مهماً، بشأن ماهية ونوع النصوص، التي كان يفضل جمهور المثقفين من البيروقراطية الدينية المحلية، قراءتها. ومن الواضح أن الاهتمامات الفكرية لم تكن تقتصر على دراسة الفقه الإسلامي، والذي كان صلب المناهج الدراسية في المدارس الإسلامية، في القرون الوسطى، بل كان هناك شخصيات كثيرة – كما توضح مخطوطة واسط – فالقزويني كان عالماً وقاضياً وفقيهاً، لكنه في الوقت نفسه كان مهتماً بدراسة الطبيعة.

إن دراسة الطبيعة، حسب النمط الإسلامي، جاءت تحديداً مما تناقله المفكرون حول نشأة الكون، المستقاة من تعاليم (ابن سينا). ووفقاً لهذا النمط – فكر (ابن سينا) – الذي تأثر كثيراً، وبشكل واضح، بالأفلاطونية المحدثة (الإسلامية)، لم يكن هناك تناقض بين الخلق، كما ورد في (القرآن)، وبين ما جاء به الفلاسفة قبل الإسلام، بأن الطبيعة انبثقت من مصدر واحد. هذا من جهة، إذ ساوى – ابن سينا – في هذه النظرية – الأفلاطونية المحدثة – بين مصدرين: الفلاسفة ما قبل الإسلام، والتفسير الإسلامي لنشأة الكون. وبالتالي فإن (القزويني) قد أشار إلى الله باعتباره (المفيض) (مصدر الانبثاق) في مقدمته٣١. ومن هذا التأثير الكبير لـ(ابن سينا) على (القزويني)، فقد وصل به الأمر إلى الاعتقاد، بشكل واسع، بأن جميع المخلوقات قد انبثقت من الله، وأن العالم يجيء صدوراً عن الله، في صورة فيض، فمرتبة تفيض عن مرتبة، وهكذا حتى تصل إلى أدنى المراتب. وهذه هي الخلفية الفكرية الواسعة، التي تفسر: لماذا اعتمد (القزويني) في رسمه لنشأة الكون – مثله مثل الدراسات الإسلامية في القرون الوسطى عن الطبيعة – خلق عالم سماوي يسبق عجائب المخلوقات للعالم الدنيوي، والسلالات المختلطة تتعدى تصنيفات الخلق التي تظهر في النهاية.

وهذا يرتبط بشكل وثيق مع النصوص العربية، التي درست طبيعة الكون، إذ كان تقليداً معروفاً في المخطوطات العربية، التي كانت في أغلب الأحيان تصور أن خلق الأشياء الفردية قد جرى بمعزل عن خلق بقية ما جرى على الأرض. والصور في مخطوطة (واسط) تتفق عموماً مع هذا النوع من التصوير، حتى حين يتم اختبار إمكانيات أسلوبية جديدة في تصوير الموضوعات، مثل حركات الحيوانات(fig C).


Fig. C. The Horse. Qazwīnī, *ʿAjāʾib al-makhlūqāt wa-gharāʾib al-mawjūdāt*. Wasit, 679 (1280). Munich, Bayerische Staatsbibliothek, Cod.arab.464, fol. 169r (Courtesy of the Bayerische Staatsbibliothek).

إن بقية اللوحات في مخطوطة ١٣٢٢، تعطي أيضاً إشارة واضحة على وجود تركيز بصري على الإطارات الكوزموغرافية (نشأة الكون)، أكثر من النص نفسه، ولكن بطريقة جديدة. فالخلفيات للرسوم التوضيحية، تؤكد وجود ترتيب خلق به الكون، ووضعت هذه اللوحات بإطار من النصوص. وتظهر عجائب المخلوقات في السماوات على خلفية زرقاء عميقة، مما يشير إلى السماء ليلاً (الشكل ٨). ويبدأ تصوير الأرض حين يزامنه باستقراء البحار والجزر وسكانها، وهنا الخلفية تتحول إلى خلفية زرقاء، نمط من الأمواج الزرقاء (الشكل ٩). وعلى أية حال، فإنه عندما يصور عجائب مخلوقات الأرض، في الفصول اللاحقة، فإنه يفضل الخلفيات الحمراء والبرتقالية و(المَغري) البني، بدرجاته المتعددة، ويستخدم هذه الألوان باتساع في لوحاته الإنجوية (الأشكال ١، ٣، ٦). وبالتالي، يصبح جلياً أنه في هذه المخطوطة، أن ألوان الأحمر والبرتقالي والمَغري يمثل لون (تراب الأرض). ويتجاوز هذا النمط فقط حين يستخدم موجات زرقاء في رسم خلفيات أجزاء من البحار، إذا تصور

فكل نوع محدد يظهر بمعزل عن الآخر، وقد كانت هذه – على سبيل المثال – أيضاً سمة تصوير النباتات في مخطوطات ديسقوريدوس، في القرن الثالث عشر. وفي مخطوطة ١٣٢٢ للقزويني كانت الصور، في فصول دراسة الأشجار والنباتات، تتبع هذا النوع التركيبي أيضاً من التصوير (أنظر الشكل ٧). فتركيبة الأنواع الفردية مقابل الأنواع الأرضية، تشير بوضوح إلى وجود وعي واضح لموقف النص داخل جسم أوسع من النصوص العربية، التي عنيت بدراسة الطبيعة، حتى عملية تظليل لحاء جذوع الأشجار في نفس الصور، تدل على وجود اهتمام بتجريب احتمالات أسلوبية جديدة، متبعة في ذلك الوقت في (تبريز).

العجب من إنشاء جزء من اليابسة عليها (الجزيرة)، كتصويره شجرة في (جزيرة الواقواق) (الشكل ١٠)، أو جزء من الأرض يمتد إلى قلب البحر، وخير مثال على ذلك البر الذي يتغلغل في البحر الفارسي. في هذه اللوحة، والتي توضح القصة المعروفة لإحضار مسافرين بؤساء، تقطعت بهم السبل، إلى جزيرة على البحر الفارسي، ووصلوا إلى بر الأمان، بعد أن حملهم (طائر الرخ) العملاق (الشكل ١١). وهنا تؤكد الخلفية الحمراء للوحة، على أهمية الأرض الجافة في الحكاية.

رغم أن اللغة المحلية لـ(فارس) كانت الفارسية، إلا أن مخطوطة ١٣٢٢ تدل على أن الجمهور الأصلي كان مرتاحاً جداً في مجال اللغة مع الثقافة العربية، وكأن العربية كانت لغتهم الأصلية Arabophone. في حين يقدم لنا التنظيم الهرمي الكوزموغرافي، الذي أنشأه (القزويني)، أن مخطوطته كانت في متناول فئة العلماء البيروقراطيين / الدينيين، فيتضح لنا لمن كتبت هذه الأنماط من المخطوطات أولاً، إضافة إلى أن الأسلوبية والسرد فيها، قد جذبت، في وقت لاحق، بلاط الترك – مغول. ففي الأجيال اللاحقة، ساهمت ترجمة كوزموغرافيا القزويني إلى الفارسية، في تسهيل وصولها ليد الجمهور في بلاط المغول الأتراك.

تشير الرسوم التوضيحية لمخطوطة ١٣٢٢، إلى أنه حتى طريقة تقييم وتقدير النص، من قبل قرائها غير العرب، قد جرت ضمن سياق منظور لغوي، يتبع الخطاب الفكري العربي المعني بدراسة الطبيعة. وكانوا في الوقت نفسه، قد قرأوه من منظور مختلف تماماً، فيما أصبح سائداً على نحو متزايد في البلاط الفارسي. في حين أن استخدام الخلفيات الملونة، للتأكيد على أهمية نظام الخلق، داخل النص، تشير إلى أن مخطوطة ١٣٢٢ هي النسق الفكري الذي مثله علماء أواخر القرن الثالث عشر في (واسط). وقرار الرسام التأكيد سردياً على قصص مختلفة في نص (القزويني)، يشير إلى الدرجة التي انتمى فيها بالوقت نفسه إلى النسق الثقافي الذي نشأ حديثاً، متمثلاً بالبلاط المغولي – التركي.

وقد ارتبطت فئة العلماء البيروقراطيين (البيروقراطية العلمية) بالبيروقراطية الدينية، من خلال التدريب، وإدارة الأسر المغولية – التركية للقطاعات الإدارية. وإن التعامل قد جرى بين عالمين مختلفين: اجتماعياً وثقافياً، وقد قدروا مخطوطة مثل مخطوطة ١٣٢٢، لأنها قد وافقت تطلعاتهم الفكرية والفنية.

والرسوم التوضيحية توثق اهتماماً متعدداً بالسرد والأسلوب: فلوحة قصة انقاذ المسافرين من قبل الرخ، تلفت الانتباه إلى سرد يماثل نص بكلمة (حكاية)، أو (قصة). أما لوحة العضل (الجربوع: وهو حيوان ثديي صغير، من فصيلة الفأريات)، فهي تصف التنظيم الاجتماعي (التراتب) (الشكل ١٢)،

الـذي يتماثـل مـع سـردية الـنص. ووفقـاً لـ(القزويني) فإن (الجربوع) له رئيس، فعندما يغـادرون جحـورهم لجمـع القـوت، فـإن مسؤولية رئيسهم مراقبة المحيط من أحد أعلى الـتلال، لتحـذيرهم إذا مـا اقـترب حيـوان مفـترس، فـإذا فشـل في هـذه المهمـة، تـتم الإطاحـة بـه، واختيـار بـديل، كمـا لاحـظ (القـزويني). وبـدل أن يرسـم لوحـة توضـح أنواع (اليربوع)، فإنه آثر أن يرسم ثلاثة مـن اليربوع يتفاعلون فيما بينهم، فـاثنين مـنهم على الميمنة، يبدأون بالخروج من الجحور، في حين يظهر ثالث مترقباً على اليسار فوق تلـة، يفترض أنـه الـرئيس، يظهـر وكأنـه يتشـاور معهم من بعيد.

في الختـام، فـإن مخطوطـة القـزويني ١٣٢٢، تذكرنا، فضلاً عن النظـر في كيـف أن الحكم الإيلخاني أثر ولم يؤثر علـى الحيـاة الثقافية في مناطق مثـل (العـراق) و(فـارس)، فمن المهم أيضـاً أن ننظـر إلى الآثـار الجانبيـة للتشـاقف بـين ذينـك الإقلـيمين. ففئـة البيروقراطية العلميـة سـاهمت بـإدارة تلـك المناطق بعد الغزو، فلـيس الارتبـاط جغرافيـاً فحسب، بل كان هناك اتصـال عميـق قـديم وجديـد، مـرتبط بأبعـاد بصـرية، لغويـة، وفكرية، وفنية، وثقافيـة، أدتـه المخطوطـات، وكـان هـذا صـحيحاً جـداً في (العـراق) و(فارس) على حد سواء.

وتزخـر الرسـوم التوضـيحية في المخطوطات بما يوحي بأن جمهورها كأنـه قـد عمل من خـلال ورشـة عمـل مشـتركة بـين عالمين مختلفين، فكان (القزويني) ناجحـاً جـداً في مد الجسور بين هذين العـالمين في مخطوطـة ١٣٢٢، من خلال الكوزموغرافيا. لذا فـإن المخطوطة تقدم نفسـها كـدليل علـى وجـود تجسد لتحول ثقافي عميـق في هـذه الفـترة في (فارس)، فهي تشير إلى بعض الطرق التي تميز بها التحول بين ما نسميه (اللوحة العربيـة) و (اللوحـة الفارسـية)، الـذي لم يكـن نتيجـة انقطاع، بل من خـلال وجـود استمرارية في الاتصال بين الإقليمين❑

الهوامش :

*هذه الترجمة للأصل الذي كتب باللغة الإنكليزية:

FROM IRAQ TO FARS: TRACKING CULTURAL TRANSFORMATIONS IN THE1322 QAZWĪNĪ 'AJ'ĀIB MANUSCRIPT , Persis Berlekamp

بحث مستل من كتاب:

Arab Painting:Text and Image in Illustrated Arabic Manuscripts Anna Contadini,(Handbook of Oriental Studies) BRILL, .2010

**سلالة الانجو: هي سلالة شيعية ذات أصول مغولية، حكمت بعض المدن الفارسية، مثل: (أصفهان)، خلال القرن الرابع عشر الميلادي، وأعضاؤها كانوا مستقلين، لكنهم كانوا يتبعون الإيلخانيين، إلى أن انفصلوا عنهم في ١٣٥٧م (المترجم). وللمزيد عنهم ينظر:

ENCYCLOPÆDIA IRANICA Vol. XIII, Fasc. 2, pp. 143-147
The Legacy of Genghis Khan :Courtly Art and Culture in Western Asia, 1256–1353
Jump up The Huns, Rome and the Birth of Europe, Hyun Jin Kim
Peter Jackson (1986). The Cambridge



(23) Rührdanz 1973; Carboni 1992, p. 411; Nebes 1997.
(24) Wright, p. 12, n. 5. The attribution of the 1307–8 London Kalīla wa-Dimna to Shiraz does strike me as a plausible hypothesis. Yet, its significant stylistic differences from the recognized corpus of Inju illustrated manuscripts exclude it from the general category of Inju painting as we now understand it. Waley and Titley 1975.
(25) EI2 sv., 'Indju'.
(26) Adamova 1992 and 2004.
(27)Wright 2006; Simpson 2000; Stchoukine 1936.
(28) Munich, BSB, cod. arab. 464, fol. 1v.
(29) For a general account of the understanding of the emanation of creation as popularized by Ibn Sīna, see 1970, pp. 21–27.

المصادر:

1. Adamova, Ada. "Repetition of Compositions in Manu- scripts: The Khamsa of Nizami in Leningrad". In Timurid Art and Culture: Iran and Central Asia in the Fifteenth Century, ed. Lisa Golombek and Maria Eva Subtelny, pp. 67–75, Leiden: Brill, 1992.
2. " .——The St. Petersburg Illustrated Shahnama of 733
3. Hijra (1333 AD) and the Injuid School of Painting". In Shahnama: The Visual Language of the Persian Book of Kings, ed. Robert Hillenbrand, pp. 51–64, Aldershot: Ashgate, 2004.
4. Adamova, Ada and Leon Giuzal'ian. Miniatiury Rukopisi Poèmy "Shakhname" 1333 Goda, Leningrad: "Iskusstvo," Leningradskoe otdelenie, 1985.
5. Badiee, Julie. "An Islamic Cosmography: The Illustrationsof the Sarre Qazwini". Ph.D. diss., The University of Michigan, 1978.
History of Iran, Volume Six: The Timurid and Safavid Periods .
Arthur J. Arberrt (1960). Shiraz: Persian City of Saints and Poets .

(1) Yeni Cami 813. Berlekamp 2003, Chapter 3 and Appendix B.
(2) Hees 2002, pp. 19–90; Berlekamp 2006.
(3) Bosworth 1996, p. 266.
(4) Ettinghausen 1962; Gray 1961.
(5) For an overview of artistic production in these regions, see Carboni 200.2
(6) Simpson 19.82
(7) Adamova and Giuzal'ian 1985.
(8) Sims 2006; Wright 2006.
(9) Stchoukine 1936; Simpson 2000.
(10) The connections between manuscript illumination in Fars and elsewhere are better established. See, Wright 1997; Wright 2006; Carboni 2002.
(11) British Library Or. 3623, fol. 173r.
(12) Wright 1997, p. 12; Wright 2006, Figs. 34–40.
(13) Simpson 2006.
(14) Swietochowski and Carboni 1994, p. 82.
(15) Another manuscript, possibly Mamluk, may havebeen produced in his lifetime but it is undated. Carboni and Contadini 1990.
(16) EI2, s.v. "al-šazwīnī, Zakārīya b. Mu�ammad b. Ma�mūd Abū Ya�ya".
(17) Hees, pp. 19–90.
(18) References to Qazwīnī as 'mawlānā ' also appear in manuscripts of his text that were produced centuries after his death.
(19) On this manuscript see Hees, pp. 91–350; Berlekamp 2003, pp. 39–88; Carboni 1992, pp. 5564 42; Bothmer 1971.
(20) Petrushevsky 19.68
(21) Berlekamp 2003, pp. 77–78.
(22) Carboni 1992, 411

6. Berlekamp, Persis. “Wonders and Their Images in Late Medieval Islamic Culture”. Ph.D. diss., Harvard University, 2003.
“ .——Al-Qazwīnī, Zakarīya”. In Medieval Islamic Civilization: An Encyclopedia, ed. Josef Meri, pp. 651–54 London: Routledge, 2006.
7. Bosworth, Clifford Edmund. The New Islamic Dynasties: A Chronological and Genealogical Manual, New York: Columbia University Press, 1996.
8. Bother, Hans-Caspar Graf von. “Die Illustrationen des ‘Münchener Qazwini’ von 1280 (cod. Monac. Arab 464): Ein Beitrag zur Kenntnis ihres Stils”. Ph.D. diss., Universität München, 1971.
9. Carboni, Stefano.“Synthesis: Continuity and Innovation in Ilkhanid Art”. In The Legacy of Genghis Khan: Courtly Art and Culture in Western Asia, 1256–1353, ed. Linda Komaroff and Stefano Carboni, pp. 196–226, New York: The Metropolitan Museum of Art, 2002.
10. Carboni, Stefano and Contadini, Anna. “An Illustrated Copy of al-Qazwīnī’s The Wonders of Creation”. In Sotheby’s
11. Art at Auction 1989–1990, pp. 228–233, London: Sotheby’s Publications, 1990.
12. Çağman, Filiz and Zeren Tanındı. Topkapı Palace Museum.
13. Islamic Miniature Painting, Istanbul: Tercuman Art and Cultural Publications, 1979.
14. The Encyclopedia of Islam 2 sv. “Indju,” (J. A. Boyle), Leiden: Brill.
15. “ .——al-š azwīnī, Zakārīya b. Muḥammad b. Ma’mūd Abū Yahya” (T. Lewicki), Leiden: Brill.
16. Ettinghausen, Richard. Arab Painting, Geneva: Skira, 1962.
17. Fakhry, Majid. Islamic Philosophy, New York: Columbia University Press, 1970.
18. Gray, Basil. Persian Painting, New York: Skira, 1961.
19. Hees, Syrinx von. Enzyklopädie als Spiegel des Weltbildes: Qazwīnīs Wunder der Schöpfung- eine Naturkunde des 13. Jahrhunderts, Vol. 4, Diskurse der Arabistic, Wiesbaden: Harrassowitz Verlag, 2002.
20. Nebes, A. ed. Orientalische Buchkunst in Gotha: Ausstellung zum 35 0jahrigen Jubilaum der Forschungs- und Landesbibliothek Gotha, Spiegelsaal, 11. September 199 7bis 14 December 199,7
2.1 Gotha: Forschungs- und Landesbibliothek Gotha, 1997.
22. Petrushevsky, Ilya Pavlovich. “The Socio-Economic Condition of Iran under the Il-Khāns”. In The Cambridge History of Iran, Vol. 5, The Saljuq and Mongol Periods, ed.J.A. Boyle, pp. 483–537, Cambridge: Cambridge University Press, 1968.
23. Rührdanz, Karin. “Islamische Miniaturhandschriften aus Beständen der DDR: Qazwīnī-Illustrationen des 14.
24. Jahrhunderts”. In Wissenschaftliche Zeitung der Universität Halle 22, 6, 1, pp. 123–125, Halle: University of Halle,1973.
25. Simpson, Marianna Shreve. “A Reconstruction and Preliminary Account of the 134 1Shāhnāma”. In Persian Painting from the Mongols to the Qajars. Studies in honour of Basil W. Robinson, ed. Robert Hillenbrand, pp. 217–247, London: I.B. Taurus, 2000.
26. “ .——In the Beginning: Frontispieces and Front Matter in Ilkhanid and Injuid Manuscripts”. In Beyond the Legacy of Genghis Khan,



Epic Images: Persian Painting of the 1330’s and 1340’s, New York: The Metropolitan Museum of Art, 1994.
31. Waley, P. and Norah M. Titley. “An Illustrated Persian Text of Kalila and Dimna dated 71307/07–8”. In British Library Journal, I, pp. 42–60, London: British Library Board, 1975.
32. Wright, Elaine. “The Look of the Book: Manuscript Production in the Southern Iranian City of Shiraz from the Early 14th Century to 1452”. Ph.D. diss., Oxford University: Trinity, 1997.
33. “ .——Patronage of the Arts of the Book Under the
34. Injuids of Shiraz”. In Beyond the Legacy of Genghis Khan, ed. Linda Komaroff, pp. 248–268, Leiden: Brill, 2006.
ed. Linda Komaroff, pp. 213–247, Leiden: Brill, 2006.
27.“ .——The Role of Baghdād in the Formation of Per- sian Painting”. In Art et societé dans le Monde Iranien, ed. Chahryar Adle, pp. 91–116, Paris: Éditions Recherche sur les Civilisations, 1982.
28. Sims, Eleanor. “Thoughts on a Shāhnāma Legacy of the Four- teenth Century: Four Injū Manuscripts and the Great Mongol Shāhnāma”. In Beyond the Legacy of Genghis Khan, ed. Linda Komaroff, pp. 269–286, Leiden: Brill, 2006.
29. Stchoukine, Ivan. La Peinture iranniene sous les derniers Abbasides et les Il Khans, Bruges: Imprimerie Sainte Catherine, 1936.
30. Swietochowski, Marie Lukens and Stefano Carboni. Ilustrated Poetry and



المصورات



Fig. 1. The Horned Horse, with the colophon below. Qazwīnī, *{Ajāxib al-makhlūqāt wa-gharāxib al-mawjūdāt.* Fars, .722 (1322)

Istanbul, Süleymaniye Library, Yeni Cami 813, fol. 181v (Courtesy of the Süleymaniye Library)

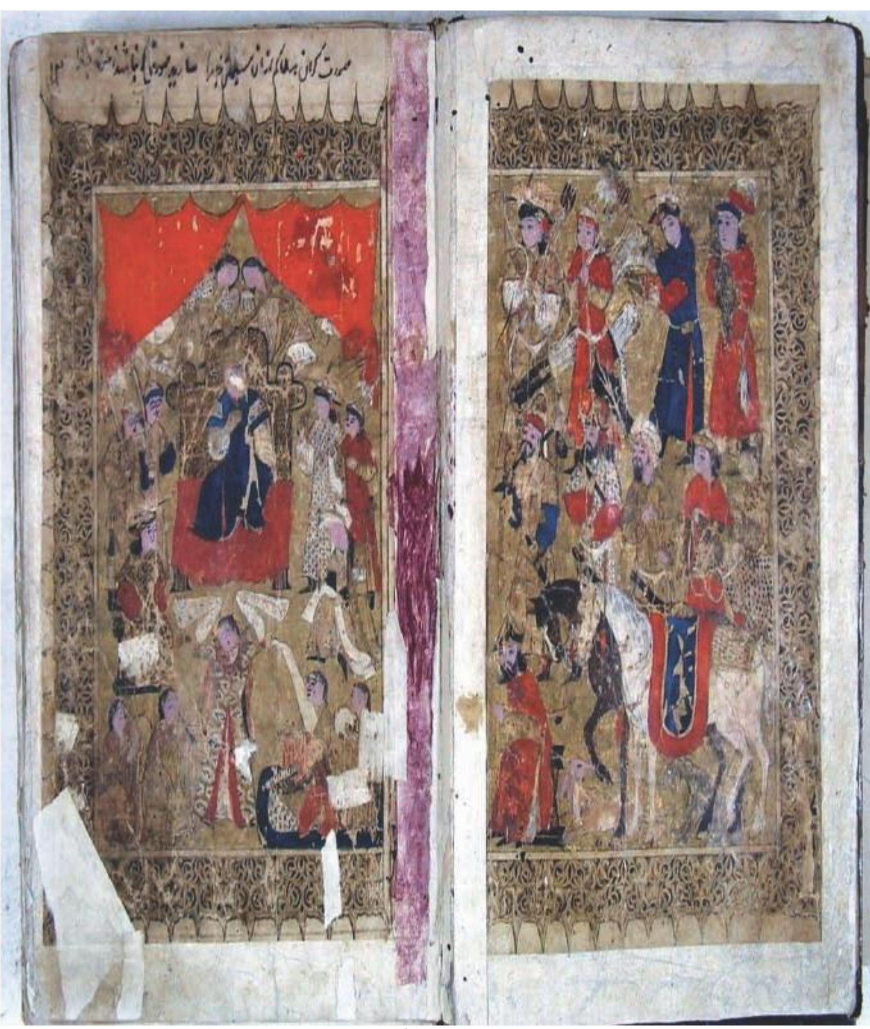


Fig. 2. Frontispiece. Qazwīnī, {Ajāxib al-makhlūqāt wa-gharāxib al-mawjūdāt. Fars, 722 (1322). Istanbul, Süleymaniye Library, Yeni Cami 813, fols. 1v–2r (Courtesy of the Süleymaniye Library)



Fig. 3. The Sparrow hawk, Parrot, Nightingale, Owl, Pheasant, Weaverbird, and Snake hatcher. Qazwīnī, {Ajāxib al-makhlūqāt wa-gharāxib al-mawjūdāt. Fars, 722 (1322). Istanbul, Süleymaniye Library, Yeni Cami 813, fols. 160v–161r (Courtesy of the Süleymaniye Library)

Fig. 4. The Magpie and the {anqāx. Qazwīnī, {Ajāxib al-makhlūqāt wa-gharāxib al-mawjūdāt. Fars, 722 (1322). Istanbul, Süleymaniye Library, Yeni Cami 813, fol. 166r (Courtesy of the Süleymaniye Library)



Fig. 5. The Horse. Qazwīnī, {Ajāxib al-makhlūqāt wa-gharāxib al-mawjūdāt. Fars, ca. 1315–20. Gotha, Forschungs- und Landesbibliothek, fol. 92r (Courtesy of the Forschungs- und Landesbibliothek)

Fig. 6. The Horse. Qazwīnī, {Ajāxib al-makhlūqāt wa-gharāxib al-mawjūdāt. Fars, 722 (1322). Istanbul, Süleymaniye Library, Yeni Cami 813, fol. 145v (Courtesy of the Süleymaniye Library)



Fig. 7. *Khusraw Dār* (a large tree), Castor oil plant, Willow, Peach, Spiny Cytisus, Elm, and Plane. Qazwīnī, *{Ajāxib al-makhlūqāt wa-gharāxib al-mawjūdāt.* Fars, 722 (1322). Istanbul, Süleymaniye Library, Yeni Cami 813, fols. 98v–99r (Courtesy of the Süleymaniye Library



Fig. 8. Mercury. Qazwīnī, {Ajāxib al-makhlūqāt wa-gharāxib al-mawjūdāt. Fars, 722 (1322). Istanbul, Süleymaniye Library, Yeni Cami 813, fol. 11v (Courtesy of the Süleymaniye Library)



Fig. 9. The Tannīn. Qazwīnī, {Ajāxib al-makhlūqāt wa-gharāxib al-mawjūdāt. Fars, 722 (1322). Istanbul, Süleymaniye Library, Yeni Cami 813, fol. 58r (Courtesy of the Süleymaniye Library)



Fig. 10. A wāqwāq tree of Wāqwāq Island. Qazwīnī, {Ajāxib al-makhlūqāt wa-gharāxib al-mawjūdāt. Fars, 722 (1322). Istanbul, Süleymaniye Library, Yeni Cami 813, fol. 47v (Courtesy of the Süleymaniye Library)



Fig. 11. The Rūkh bird rescues the man from Isfahan. Qazwīnī, {Ajāxib al-makhlūqāt wa-gharāxib al-mawjūdāt. Fars, 722 (1322.(
Istanbul, Süleymaniye Library, Yeni Cami 813, fol. 50v (Courtesy of the Süleymaniye Library



Fig. 12. The Gerbil and the samandal. Qazwīnī, {Ajāxib al-makhlūqāt wa-gharāxib al-mawjūdāt. Fars, 722 (1322). Istanbul, Süleymaniye Library, Yeni Cami 813, fol. 174v (Courtesy of the Süleymaniye Library)

إدراك مقاصد الشريعة الإسلامية



د.أياد كامل الزيباري

مفهوم المقاصد

أولاً: المقاصد في اللغة: جمع مقصد، مشتق من قصد يقصد، وهو من باب (ضرب). وقصد الشيء، بمعنى طلبه. يقال: إليه قصدي ومقصدي (بفتح الصاد). وبعض الفقهاء جمع القصد على قصود[١]. ويأتي القصد بمعنى النية والاعتزام والتوجه[٢]، ومنه القاعدة الفقهية :(إنما الأمور بمقاصدها)[٣]. ويأتي القصد بمعنى إتيان الشيء وطلبه بعينه. تقول: قصدته، وقصدت إليه، وقصدت له، بمعنى واحد. والقصد: استقامة الطريق[٤]. قال تعالى: ((وَعَلَى اللّٰهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ))(٥) ،أي على الله تبيين الطريق المستقيم. ومنها جائر: طريق غير قاصد. وطريق قاصد: أي سهل مستقيم. وسفر قاصد: سهل قريب[٦].

ويأتي القصد بمعنى العدل والوسط بين الطرفين[٧] ، ومنه قول النبي (صلى الله عليه وسلم): ((**سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاغْدُوا وَرُوحُوا، وَشَيْءٌ مِنْ الدُّلْجَةِ، وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ**

تَبْلُغُوا))[٨]، أي: التوسط بين الشيئين [٩]. قال تعالى: (وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ، وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ) [١٠]، أي: توسط فيه واعتدل، وعليك بالسكينة والوقار[١١].

ويأتي القصد متدرجاً في مراتب حديث النفس [١٢]، إذ قسم بعضهم ما يدور فيها إلى خمس مراتب:

١- الهاجس: وهو ما يلقى فيها، بدون قصد.

٢- الخاطر: وهو سريانه فيها.

٣- حديث النفس: وهو ما يقع مع التردد: هل يفعل، أو لا يفعل.

٤- الهم: وهو ترجيح قصد الفعل على تركه.

٥- العزم: وهو قوة القصد والحزم، وبمعناه: النية.

ثانياً: المقاصد في الاصطلاح: تعرض العلماء السابقون، والمعاصرون، للمقاصد، وتكلموا فيها، إلا أن السابقين لم يضعوا لها تعريفاً محدداً، بل تكلموا في آثارها وأحكامها. ويرجع ذلك إلى أن المعاني كانت حاضرة في أذهانهم، وتسيل على ألسنتهم، دون كد ولا تعب، ومع ذلك فقد اختلفت عبارات الباحثين في تعريفاتهم لها، على النحو الآتي:

١- فقد عرفها بعضهم بأنها:(المحافظة على مقصود الشارع، بدفع المفاسد عن الخلق)[١٣].

٢- وعرفها بعض آخر بأنها:(المحافظة على مصالح الناس في الدنيا والآخرة)[١٤].

٣- وقد تطرق بعض العلماء إلى المقاصد من جهة الغاية والأنواع، فذهب (الغزالي) إلى بيان ذلك من خلال تعريفه للمصلحة بقوله: (.. نعني بالمصلحة: المحافظة على مقصود الشرع، ومقصود الشرع من الخلق خمسة، وهو أن يحفظ عليهم دينهم، ونفسهم، وعقلهم، ونسلهم، ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة، ودفعها مصلحة)[١٥]. وكذا (الشاطبي)، الذي حصرها في ثلاثة أنواع: الضروري، والحاجي، والتحسيني[١٦].

وأما الباحثون المعاصرون، فيميلون إلى التعميم في التعريف، ومن هذه التعريفات:

١- تعريف العلامة (الطاهر بن عاشور)، الذي يرى بأنها: (هي المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع، أو معظمها، بحيث لا تختص بكونها في نوع خاص من أنواع الشريعة)[١٧].

٢- وعرفها (علال الفاسي) بقوله: (المراد بمقاصد الشريعة الغاية منها، والأسرار التي وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها)[١٨].

٣- وعرفها الشيخ (القرضاوي) بأنها: (الغايات التي تهدف إليها النصوص من الأوامر والنواهي والإباحات، وتسعى الأحكام الجزئية إلى تحقيقها في حياة المكلفين، أفرادا وأسراً، وجماعات وأمة)[١٩].

٤- وعرفها الدكتور (أحمد الريسوني) بأنها: (الغايات التي وضعت الشريعة لأجل تحقيقها لمصلحة العباد)[٢٠].

٥- وذهب (الصابوني) إلى أنها: (الأهداف الكبرى التي ترمي إليها أحكامها العامة، ومبادؤها الكلية، وقد جاءت لتحقيق الرحمة والعدالة ومصالح الناس)[٢١]، ومعنى ذلك أن مقاصد الشريعة هي جلب المصالح ودفع المفاسد في الدنيا والآخرة، وهي عبادة الخالق، وإصلاح المخلوق[٢٢].

وهذه التعريفات وإن اختلفت في ألفاظها، إلا أنها ترمي إلى أمر واحد، وهو بيان أن للشريعة أحكاماً عامة، ومبادئ كلية، تهدف إلى تحقيق مصالح الناس في العاجل والآجل. ومع هذا، فإن ما ذكره (الصابوني) كان أوضح من غيره في بيان المراد.

النتائج المترتبة على إدراك مقاصد الشريعة

إن فهم مقاصد الشريعة في تشريع الأحكام ترتب عليه مصالح عظيمة، وفوائد جليلة، منها :

١- إبراز علل التشريع، وحكمه، وأغراضه، ومراميه، الجزئية والكلية، والعامة والخاصة، في شتى مجالات الحياة، وفي مختلف أبواب الشريعة[٢٣].

٢- إن فهم مقاصد الشريعة ضروري لكل من اشتغل بعلوم الدين الإسلامي، فلا يمكن أن يستغني عنها مفسر ولا فقيه ولا أصولي ولا محدث[٢٤]، لأن ذلك يساعده في استنباط الأحكام، وفهمها، وتطبيقها، والأخذ بالمنهج الأصلح في كل زمان ومكان، على وفق مقاصد الشارع العظيم.

٣- المقاصد قبلة المجتهدين: وعليه فإن أعظم الفوائد، وأوسع العوائد، التي تُجتنى من مقاصد الشريعة هي تلك التي يجنيها العلماء المجتهدون، لأنهم الأقدر على اجتنائها واستيعابها، ولأن ذلك يعود بالنفع والخير على عموم الأمة، إذ بهم تهتدي، وبهم تقتدي[٢٥].

وخلاصة فائدة المجتهدين من معرفة المقاصد، توجد في عبارة: (المقاصد قبلة المجتهدين)، وهي عبارة مقتبسة من (أبي حامد الغزالي) (رحمه الله)، فقد نقل (السيوطي) عنه

أنه قال في كتابه (حقيقة القولين): "مقاصد الشرع قبلة المجتهدين، من توجه إلى جهة منها أصاب الحق .." [٢٦].

فالمجتهد إذا اجتهد في تحري مقاصد الشرع، حتى أبصرها وعرفها، ثم جعل التوجه إليها قبلته، والأخذ بمقتضاها غايته، فهو على نور من ربه، مسدّد في ورده وصدره[٢٧].

ولهذا نجد الإمام (الغزالي) يوصي الفقيه المجتهد، بأن: "يكون شديد البحث عن أسرار الأعمال والأقوال، فإنه إن اكتفى بحفظ ما يقال، كان وعاءً للعلم، ولا يكون عالماً. ولذلك كان يقال: فلان من أوعية العلم، فلا يسمى عالما، إذا كان شأنه الحفظ، من غير اطلاع على الحِكم والأسرار "[٢٨].

٤- إن عدَّ مقاصد الشريعة في التعامل مع النصوص يعني المزاوجة بين العقل والنقل، مما يرسخ القناعة بصلاحية الشريعة لكل زمان ومكان، ويعصمها من الحرج والضيق والتناقض.[٢٩]

٥- المقاصد لا تعرف المذهبية، ودراسة الفقه في ضوء المقاصد تؤدي إلى التقليل من الاختلاف والنزاع الفقهي والتعصب المذهبي، وذلك باعتماد مقاصد الأحكام، وعللها الظاهرة المنضبطة، في عملية بناء الحكم عليها، والجمع والترجيح بين الآراء المختلفة، ودرء التعارض بينها[٣٠].

٦- تأكيد خصائص صلاحية الشريعة، ودوامها وواقعيتها ومرونتها، وقدرتها على الإصلاح والتفاعل مع مختلف البيئات والظروف والأطوار[٣١].

٧- إثراء المباحث الأصولية ذات الصلة بالمقاصد، على نحو: المصالح، والقياس، والعرف، والقواعد، والذرائع، وغيرها من القواعد العامة، ذات الصلة بواقع الناس وأحوالهم، لمراعاة ذلك في تطبيق الأحكام الشرعية[٣٢].

٨- التوفيق بين خاصتي: الأخذ بظاهر النص، والالتفات إلى روحه ومدلوله، على وجه لا يخل فيه المعنى بالنص، ولا بالعكس، لتجري الشريعة على نظام واحد، لا اختلاف فيه ولا تناقض[٣٣].

٩- إعانة المكلف على أداء التكليف، والامتثال، على أحسن الوجوه وأتمها. ومن ذلك -مثلاً- أن المكلف إذا علم أن المقصد من الحج التأدب الكامل مع الناس، والتحلي بأخلاق الإسلام العليا، فإنه إذا علم ذلك فسيعمل جاهداً ومجتهداً لتحصيل تلك المرتبة العليا، التي تجعل صاحبها عائداً بعد حجه كيوم ولدته أمه. وكذلك إعانة الخطيب والداعية والقاضي والمفتي والحاكم وغيرهم، على أداء وظائفهم وأعمالهم، على وفق مراد الشارع، ومقصود الأمر والنهي، وليس على

وفق حرفيات النصوص، وظواهر الخطاب، ومباني الألفاظ[٣٤].

وعليه، فإن المقاصد تزيل الكلل، وتسدد العمل، وقديماً قالوا: (من عرف ما قصد، هان عليه ما وجد)[٣٥]، فالإنسان حين يقدم على عمل، وهو لا يدري لماذا هذا العمل، ولا يدري النتائج التي يسعى إلى بلوغها، والفوائد التي يعمل لجنيها وتحصيلها، ولا يدري قيمة ما هو فيه، وجدوى ما هو بصدده، هذا الإنسان عادة ما يصاب في عمله وسعيه بتحير واضطراب، أو بكلل وملل، أو بضجر وانقطاع .

١٠- تحقيق التوازن والاعتدال، وعدم الاضطراب في الأحكام[٣٦].

١١- وأخيراً، من فوائد فهم مقاصد الشريعة هو أن المقاصد في خدمة الدعوة، لتكون على بصيرة، قال تعالى: (قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي، وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)[٣٧]، فقد قررت هذه الآية الكريمة أن سبيل رسول الله، والذين اتبعوه، يتمثل في أمرين :

١- الدعوة إلى الله، وإلى دينه.

٢- أن تكون هذه الدعوة على بصيرة.

ومن البصيرة أن يكون الداعية بصيراً بزمانه وأهله وقضاياهم، بصيراً بمن يخاطبهم ويدعوهم، بصيراً ببيئته ومجال تحركه، بصيراً بالوسائل والأساليب، ما يلائم منها وما لا يلائم.

ولكن قبل البصيرة في هذه الأمور الظرفية والعملية، يحتاج الدعاة إلى البصيرة في دينهم، والبصيرة في الدين لا تتحقق إلا بمعرفة مقاصده في عقائده وأحكامه وآدابه[٣٨].

ومن التوجيهات القرآنية المتعلقة بالدعوة وشروطها، ما جاء في قوله تعالى: (ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)[٣٩].

والدعوة بالحكمة تقتضي معرفة الحكمة، وبيان الحكمة. ومن الحكمة حكمة الشرع الحنيف فيما جاء به من الأحكام والتكاليف، وهي المقاصد. والموعظة تكون حسنة، أو تزداد حُسناً، حين تحلى وتعزز بتعريف المخاطب بعلل الأمور، وبما وراءها من مصالح ومنافع، أو مفاسد ومضار.

وإذا كانت دعوة الناس تحتاج بصفة دائمة إلى بيان المقاصد، لمزيد من الإقناع والإفهام، ولمزيد من تقوية العمل والالتزام، فإنها اليوم أشد احتياجاً إلى ذلك، لأسباب إضافية تتعلق بعصرنا، فالإسلام اليوم – حتى بين أبنائه، وفي عقر داره – لم يعد هو العقيدة الوحيدة والموحدة، ولا هو الشريعة الوحيدة المهيمنة، ولا هو الثقافة الوحيدة السائدة، بل نحن في زمن المنافسة والمزايدة، وفي زمن العولمة الغربية، والاكتساح الأجنبي، إذ يتعرض

الإسلام بالذات إلى مخططات وحملات، ترمي إلى تصفيته واقتلاعه أحياناً، وترمي إلى تشويهه والتشكيك فيه أحياناً أخرى. وحتى بدون مخططات ولا حملات، فإن المنافسة الثقافية والمذهبية، السياسية والتشريعية، أضحت اليوم شديدة حامية الوطيس[٤٠]، وهذا ما يحتم على علماء الإسلام ودعاته – أكثر من أي وقت مضى– أن يكونوا على بصيرة في دينهم وشريعتهم ودعوتهم وواقعهم❑

الهوامش

(١) أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المصباح المنير، ج٢، ص ٥٠٤ .

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج ١٥، ص٣٤٧. وابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج٥، ص٧٩.

(٣) ينظر: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعي،ج١، ص ١١.

د. أحمد محمد الزرقا، شرح القواعد الفقهية، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٤٠٩هـ ، ص ٣٣. د. عبد الكريم زيدان، الوجيز في شرح القواعد الفقهية، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ–٢٠٠٦م، ص ١٥. د. محمد عثمان شبير، القواعد الكلية والضوابط الفقهية في الشريعة الإسلامية، دار النفائس، الأردن، ط٢، ١٤٢٨هـ–٢٠٠٧م، ص٩١.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، ج ٣، ص٣٥٣. ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج٥، ص ٩٥.

(٥) سورة النحل: الآية (٩).

(٦) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، ج٣، ص٥. الزمخشري، أساس البلاغة، ج٢، ص٢٤٩. الرازي، مفاتيح الغيب، ج١، ص ٢٦٩٧.

(٧) الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ج٩، ص٣٨. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص١٣٢٨.

(٨) البخاري، الجامع المسند الصحيح، كالرقاق، بالقصد والمداومة على العمل، رقم الحديث ٦٤٦٣ .

(٩) ابن حجر، فتح الباري،١١، ص٣٦٠.

(١٠) سورة لقمان: الآية (١٩).

(١١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٤، ص٧١. د.مصطفى ديب البغا، بحوث في مقاصد التشريع الإسلامي، دار المصطفى، دمشق، ط١، ١٤٣٠هـ– ٢٠٠٩م،ص٧.

(١٢) الزركشي، محمد بن بهادر بن عبد الله أبو عبد الله، المنثور في القواعد، تحقيق: د. تيسير فائق أحمد محمود، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – الكويت، ط٢ ، ١٤٠٥هـ– ١٩٨٥م، ج٢،ص٣٣– ٣٧.

(١٣) الشوكاني ، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، ج٢، ص ١٨٤.

(١٤) د. مصطفى الزحيلي، أصول الفقه الإسلامي، مؤسسة الوحدة، دمشق، (د.ط)، ١٤٠٢هـ– ١٩٨٢م، ص٧٨ .

(١٥) الغزالي، أبو حامد، المستصفى في علم الأصول، ج١، ص ٣٧٩.

(١٦) الشاطبي، الموافقات، ج٢، ص ١٧ .

(١٧)ابن عاشور، محمد بن طاهر، مقاصد الشريعة، دار النفائس، الأردن، ط١، ١٤٢٠هـ–١٩٩٩م، ص١٨٣.

(١٨) علال الفاسي، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، ص ١١١.

(١٩) د. يوسف القرضاوي، دراسة في فقه مقاصد الشريعة بين المقاصد الكلية والنصوص الجزئية، دار

الشروق–القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ– ٢٠٠٦م، ص ٢٠ .
(٢٠) د. أحمد الريسون، الفكر المقاصدي قواعد وفوائد، دار الهادي، بيروت، ط٢، ١٤٢٩هـ– ٢٠٠٨م، ص ١٣ .
(٢١) عبد الرحمن الصابوني، مذكرات في مصادر التشريع الإسلامي وطرق استنباط الأحكام، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، دمشق، ط١، ١٣٨٤هـ– ١٩٦٥م، ص٥١١.
(٢٢) د.نور الدين مختار الخادمي، أبحاث في مقاصد الشريعة، مؤسسة المعارف، بيروت، ط١ ، ١٤٢٩هـ– ٢٠٠٨م، ص٤٠.
(٢٣) د. أحمد الريسون ، الفكر المقاصدي قواعد وفوائد ، ص ٨١.
(٢٤) د.عبد العزيز بن عبد الرحمن بن علي بن ربيعة، علم مقاصد الشريعة، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ط١، ١٤٢٣هـ– ٢٠٠٢م، ص ٤١ .
(٢٥) د. أحمد الريسون، الفكر المقاصدي قواعد وفوائد، ص ٧٦ .
(٢٦) أبي حامد الغزالي، الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض، تحقيق: د. فؤاد عبد المنعم النمر، مؤسسة شباب الجامعة، مصر، (د.ط)، ١٤٠٥هـ– ١٩٨٥م، ص ١٨٢م.
(٢٧) د. أحمد الريسون، الفكر المقاصدي قواعد وفوائد، ص ٧٦ .
(٢٨) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج١، ص١٠٧.
(٢٩) عبد الرحمن صالح بابكر، دراسات تطبيقية حول فلسفة المقاصد في الشريعة الإسلامية، ١٤٢٢هـ–٢٠٠٢م، ص٣٢.
(٣٠) عبد الناصر حمدان بيومي إبراهيم، مقاصد تطبيق الشريعة الإسلامية والرد على شبهات المعارضين، دار اليسر، القاهرة ، ط١، ١٤٣٣هـ– ٢٠١٢م، ص ١٨.
(٣١) عبد الناصر حمدان بيومي إبراهيم، مقاصد تطبيق الشريعة الإسلامية، ص١٩.
(٣٢) ابن عاشور، مقاصدالشريعة، ص ١٨٤. د. نور الدين مختار الخادمي، أبحاث في مقاصد الشريعة، ص ٢٨.
(٣٣) الشاطبي، الموافقات، ج٣، ص ١٣٤.
(٣٤) د.نور الدين مختار الخادمي، أبحاث في مقاصد الشريعة، ص ٢٩ .
(٣٥) د. أحمد الريسون، الفكر المقاصدي قواعد وفوائد، ص ٩٣ .
(٣٦) د. يوسف محمد أحمد البدوي، مقاصد الشريعة عند ابن تيمية، دار النفائس، الأردن، ط١، ١٤٢١هـ– ٢٠٠٠م، ص١٢١.
(٣٧) سورة يوسف: الآية (١٠٨) .
(٣٨) د. أحمد الريسون، الفكر المقاصدي قواعد وفوائد، ص ٩٩.
(٣٩) سورة النحل: الآية (١٢٥) .
(٤٠) د. أحمد الريسون، الفكر المقاصدي قواعد وفوائد، ص ١٠٠.

تأملات في آية التّيه

صالح شيخو

قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ﴾ (المائدة: ٢٦).

مقدمة:

اعتبر القرآن الكريم أن الابتلاء والمحنة سُنة لا محيص عنها لعباده الصالحين والمخلصين، كأداة صقل وتنظيف أخلاقي، واستنفار للطاقة، وصهر الجماعة في نار المحنة، ولهذا جعل للمشقة محاسن وفضائل، وإن انبعاث الحضارات وولادتها في العادة لا يأتي من ظروف الراحة والدعة، بل في وسط التحدي ومواجهة الصعوبات وتجاوزها بنجاح وعقل نيّر لتولد الأفكار المبدعة التي تولد من رحم المعاناة، وتتجاوز الترسبات والأفكار المنحلة والعودة من جديد إلى إدارة الحياة..

لكن الفساد بأنواعه، والاستبداد بجوانبه ومجالاته، إن لم توضع له حدود، فالعواقب ستكون وخيمة والخسائر جسيمة. ألا ترى أن واقع العالم العربي والإسلامي، ومن الأمس البعيد وإلى اليوم، ما عدا فسحات هنا وهناك في زمان ومكان ما، العيش فيها بين المطرقة والسندان من صيحات بتهديد خارجي ودعوات بتفسخ داخلي، يمر بأوضاع يرثى لها من فساد يسري في جسم الأمة ليشل حركتها نحو النهوض والريادة، ومن استبداد سياسي واقتصادي واجتماعي وإعلامي وحتى عائلي وإداري وفني، يخرج

النشء إلى الدنيا، وقد غطى هذا الاستبداد الحياة بكذبه ونفاقه ودَجَله، ويتربى وكأن الحياة صراع بين وحوش مفترسة لا مجال للفقير والضعيف للعيش فيها، وإن وجد فهو إما تابع ذليل، أو فخور عليل، "وإنك لترى أركان الفساد الاجتماعي مقترنة، يزجي بعضها بعضاً إلى جهنم، فيما رواه النبي (صلى الله عليه وسلم): "عُرِضَ عَلَيَّ أَوَّلُ ثَلَاثَةٍ يَدْخُلُونَ النَّارَ: أَمِيرٌ مُسَلَّطٌ، وَذُو ثَرْوَةٍ مِنْ مَالٍ، لَا يُؤَدِّي حَقَّ اللَّهِ، وَفَقِيرٌ فَخُورٌ"(١)، الأول يمثل الاستبداد السياسي، والثاني يمثل الطغيان الرأسمالي، والثالث - وهو الفقير الفخور- يمثل خدم النظام من الأتباع الذين يمشون في ركاب الكبراء والأغنياء، إنهم صعاليك، ولكنهم يفخرون بسادتهم الذين التحقوا بهم. فإذا انضم إلى هذا الفساد الاجتماعي تأييد المحترفين من رجال الدين، فقد بدت سوأته وطاشت رميته. عن عوف بن مالك: سَمِعت رَسُول الله (صلى الله عليه وسلم) يَقُول: "إِنِّي أَخَاف على أمتِي من أَعمال ثَلَاثَة، قَالُوا وَمَا هِي يَا رَسُول الله، فَقَالَ: زلة عَالم، وَحكم جَائِر، وَهوى مُتبع"(٢). وليس هذا التحذير من الولاية العامة فحسب، بل إن كل رئيس لعمل - دق أو جل - ينبغي أن يستعظم حق الناس في رعايته، وحسن القيام عليه، حتى لو كان رئيس ثلاثة كتبة في ديوان، أو رئيس ثلاثة عساكر في قرية، أو أقل أو أكثر من ذلك، فإن توفر العدالة في أمة من الأمم لا يبلغ تمامه إلا إذا حسن الإشراف على شؤونها كلها، وصينت حقوق الناس في نواحي الحياة جميعاً"(٣).

وفي ظل هذه الأنظمة "يمكن لحبل الكذب أن يفوق سور الصين في الطول، وليس في القوة والصنعة، عندما يترك الشعب للمفسدين ليفسدوا في الأرض، ويهلكوا الحرث والنسل، حيث يلجأون لتكميم الأفواه، والربط على العيون، حتى يصاب الناس بعمى الألوان، ويفقدون القدرة على التمييز بين الحابل والنابل. ولأن الجزاء من جنس العمل، فإن مثل هذا الأمر لا يحدث في العادة إلا عندما لا يعتصم الشعب بـ(حبل الله) المتين، ويندفع للتردي في حبائل الشيطان، الذي يصبح سجّاناً للإنسان، حيث يقيد يديه وإرادته بحباله، ويغل قدميه بحبائله، ويخوفه حتى يصبح جباناً يخاف من كل شيء، ويصل الأمر إلى أن يرى (الحبل) فيهتز رعباً ظاناً أنه ثعبان. ومما يساعد السلطة في تطويل حبل كذبها، تقصير المناوئين والمعارضين عن أداء دورهم، وخاصة القضايا التي تهوى تسلق السلطة بـ(الحبال الصوتية) و(الحبائل السوطية)، حيث أن هذا الصنيع يطيل عمر الحاكم، الذي إذا أراد أن يدمر حريات أي شعب، يستطيع أن يفعل ذلك بسهولة، عندما

ينشر بين أفراد الشعب الهبات والمنح والعطايا. وهكذا من لم يأت بسيف المعز جاء بذهبه، ومن لم يمت بالسيف مات بغيره، تعددت الأسباب والموت واحد!

والموت الذي نعنيه هنا هو الاسترقاق، ودخول حظيرة الحاكم، والتحول إلى فرد في القطيع، الذي يضم أكثر بطانات المستبدين، وحواشي الطغاة، وتضم هذه البطانات كل ذي ناب، وذي ظفر، وكل ذي مخلب من البشر، وهم من مختلف الألوان والأطياف. إذ لا يهم المستبد أن يكون الذئب أبيض أم أسود، المهم أن يصطاد فرائسه، وفرائسه في هذه الحالة هم أبناء الشعب، ممن لم يدخلوا (بيت الطاعة) أو ينضموا إلى القطيع!"(٤).

واليوم يشبه حالنا إلى حد كبير مرحلة التيه، التي عاشها بنو إسرائيل بعد رفضهم وعنادهم دخول الأرض المقدسة التي كتب الله لهم.

فبعد أن نجى الله عز وجل (موسى) – عليه السلام – والذين ساروا معه، وأغرق (فرعون) وجنوده في اليم، سار (موسى) – عليه السلام – ببني إسرائيل قاصداً الأرض المقدسة، وطلب منهم أن يدخلوها معه، فلما علموا أن فيها قوماً جبارين أشداء خافوا من مواجهتهم ورفضوا الدخول، وقالوا لـ(موسى) – عليه السلام – : ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا، فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ﴾ (المائدة: ٢٤).

فكان العقاب الإلهي نتيجة رفضهم، أن يتيهوا في الأرض أربعين سنة، وجاء الحكم الصارم: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ﴾ (المائدة: ٢٦)، وظل بنو إسرائيل خلال هذه المدة يبحثون عن مخرج من التيه، وكلما توهموا مخرجاً اندفعوا إليه، وبذلوا فيه جهدهم، ليفاجأوا بعد ذلك أنه ليس سوى سراب(٥).

وهذا يعطينا تصور أن الذين خرجوا مع (موسى) – عليه السلام – ونجوا من (فرعون)، ما زال في نفوسهم أمراض العبودية والاستعباد، مجتمع مريض يمشي باتجاه الموت. حيث أنه (عليه السلام) واجه أعظم حضارة في عصره، وقد تبين له أن لا أمل في "إصلاح المجتمع الفرعوني الذي وضع الموت يده الباردة عليه، إنه يريد شعبه، الذي ينتظره أن يدفن في الصحراء، أولاً من خلال التيه، كي يخرج من أصلابهم جيل لا يعرف غير الشمس والحرية، وهو الذي لن يرتعد من القوم الجبارين، الذين توهمهم آباؤهم كذلك"(٦).

خلال مدة التيه مات (موسى) و(هارون) – عليهما الصلاة والسلام – وتولى حكم بني إسرائيل من بعد (موسى) – عليه السلام – فتاه: (يوشع بن نون)،

وانقضت السنوات الأربعون، وأراد (يوشع بن نون) أن يحارب الجبارين، ويدخل الأرض المقدسة، لكن ما فعله الجيل الجبان مع (موسى) – عليه السلام – لم يكن ليبرح مخيلته، لذلك فقد وضع شروطاً قاسية لمن يريد الخروج معه(٧) .

الشروط القاسية

قال (يوشع بن نون) لقومه، وهو يهم الدخول إلى الأرض المقدسة: "لاَ يَتْبَعْنِي رَجُلٌ قَدْ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا، وَلَمَّا يَبْنِ، وَلاَ آخَرُ قَدْ بَنَى بُنْيَانًا، وَلَمَّا يَرْفَعْ سُقُفَهَا، وَلاَ آخَرُ قَدِ اشْتَرَى غَنَمًا، أَوْ خَلِفَاتٍ، وَهُوَ مُنْتَظِرٌ وِلاَدَهَا..."(٨).

معاني المفردات:

بُضْعَ: قيل أنها كناية عن الفرج، الجماع، ملك الولي للمرأة، مهر المرأة، الطلاق، النكاح. يَبْنِيَ بِهَا: والبناء بالمرأة: الدخول بها، وأصل ذلك أنهم كانوا يبنون بناء لمن أراد أن يدخل بزوجته. بَنَى بُنْيَانًا: بنى داراً أو قصراً. خَلِفَاتٍ: جمع خلفة، وهي الحامل من النوق.

فهنا نرى "أن (يوشع بن نون) – عليه السلام – قد شخَّص السبب الرئيس الذي من أجله رفضت بنو إسرائيل دخول الأرض المقدسة مع (موسى) – عليه السلام – ألا وهو حب الدنيا والتعلق بها، لذلك اشترط على من يريد الخروج معه عدم انشغال البال أو تعلق القلب بشيء من الدنيا، لأنه لو تساهل في هذا الأمر لخرج معه من تشعبت همومه وخواطره في أودية الدنيا، فيصبح كل ما يتمناه ألا يصاب بمكروه، وأن يعود سالماً حتى يستكمل مسيرته الدنيوية كما تطمح نفسه"(٩).

وما أدق ما قاله الإمام (النووي) في تعليقه على هذا الحديث، وما يستفاد منه: بأن الأمور المهمة ينبغي ألا تُفَوّض إلا إلى أولي العزم وفراغ البال، ولا تُفوَّض إلى متعلق القلب بغيرها، لأن ذلك يُضعف عزمه، ويفوت كمال بذل وسعه فيه(١٠).

وأراد بهذه الأشياء المذكورة، كما يقول (ابن الجوزي): جمع الهم، فإن الهم إذا تفرق ضعف فعل الجوارح، وإذا اجتمع قوي: من تأمل هذا الحديث علم فرق ما بين أمتنا وبني إسرائيل، فإن أولئك لما أذنبوا دلوا على طريق التوبة وأتوها متلاعبين بالدين، وهذا يدل على أن الذنوب ما آلمتهم، ولا دخل خوف الجزاء عليها في قلوبهم، ولا اكترثوا بالتحذير من عواقبها، ولا سروا بالدلالة على طريق النجاة من شرها.

آيات القصة

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ

ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ(٢١) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ(٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(٢٣) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ(٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ(٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (المائدة: ٢٠-٢٦).

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا موسى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (البقرة: ٥١).

وقال تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا موسى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ (الأعراف:١٤٢).

الاستبداد الموروث

إن الشعوب التي تنشأ في مهد الاستبداد، وتساس بالظلم والاضطهاد، تفسد أخلاقها، وتذل نفوسها، ويذهب بأسها، وتضرب عليها الذلة والمسكنة، وتعتاد الخضوع، وتأنس للمهانة والخنوع، وإذا طال عليها أمد الظلم تصير هذه الأخلاق موروثة ومكتسبة حتى تكون كالغرائز الفطرية، والطبائع الخلقية. إذا أخرجت صاحبها من بيئتها، ورفعت عن رقبته نيرها، ألفيته ينزع بطبعه إليها، ويتفلت منك ليقتحم فيها. وهذا شأن البشر في كل ما يألفونه، ويجرون عليه من خير وشر، وإيمان وكفر. وقد ضرب النبي (صلى الله عليه وسلم) مثلاً لهدايته، وضلال الراسخين في الكفر من أمة الدعوة، أفسد ظلم الفراعنة فطرة بني إسرائيل في (مصر)، وطبع عليها طابع المهانة والذل، وقد أراهم الله تعالى ما لم ير أحداً من الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته وصدق رسوله (موسى) – عليه السلام –، وبين لهم أنه أخرجهم من (مصر) لينقذهم من الذل والعبودية والعذاب إلى الحرية والاستقلال والعز والنعيم. وكانوا على هذا كله إذا أصابهم نصب أو جوع، أو كلفوا أمراً يشق عليهم، يتطيرون بـ(موسى) ويتململون منه، ويذكرون (مصر) ويحنون إلى العودة إليها، ولما غاب عنهم أياماً لمناجاة ربه، اتخذوا لهم عجلاً من حليهم، الذي هو أحب شيء إليهم، وعبدوه، لما رسخ في نفوسهم من إكبار سادتهم المصريين، وإعظام معبودهم العجل (أبيس). وكان الله تعالى يعلم أنهم لا تطيعهم نفوسهم المهينة على دخول أرض الجبارين، وأن وعده تعالى لأجدادهم إنما يتم

على وفق سنته في طبيعة الاجتماع البشري: إذا هلك ذلك الجيل الذي نشأ في الوثنية والعبودية للبشر وفساد الأخلاق، ونشأ بعده جيل جديد في حرية البداوة وعدل الشريعة ونور الآيات الإلهية. وما كان الله ليهلك قوماً بذنوبهم، حتى يبين لهم حجته عليهم "ليعلموا أنه لم يظلمهم وإنما يظلمون أنفسهم، وعلى هذه السنة العادلة أمر الله تعالى بني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة، بعد أن أراهم عجائب تأييده لرسوله إليهم، فأبوا واستكبروا، فأخذهم الله تعالى بذنوبهم، وأنشأ من بعدهم قوماً آخرين، جعلهم هم الأئمة الوارثين، جعلهم كذلك بهممهم وأعمالهم الموافقة لسنته وشريعته المنزلة عليهم". فهذا بيان حكمة عصيانهم لـ(موسى) بعد ما جاءهم بالبينات، وحكمة حرمان الله تعالى لذلك الجيل منهم من الأرض المقدسة(١١).

نِعَم الله قبل التيه على بني إسرائيل

نعمة الله، ووعده الواقع، من أن يجعل فيهم أنبياء، ويجعلهم ملوكاً، وإيتائه لهم بهذا، وذلك، ما لم يؤت أحداً من العالمين حتى ذلك التاريخ. والأرض المقدسة التي هم مقدمون عليها مكتوبة لهم بوعد الله، فهي إذن يقين.. وقد رأوا من قبل كيف صدقهم الله وعده. وهذا وعده الذي هم عليه قادمون، والارتداد على الأدبار هو الخسران المبين(١٢).

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾، أي أنبياء يدعونكم إلى الهدى، ويحذرونكم من الردى، ويحثونكم على سعادتكم الأبدية، ويعلمونكم ما لم تكونوا تعلمون(١٣).

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾، فيه خمسة أقاويل: أحدها: لأنهم مَلَكوا أنفسهم، بأن خلصهم من استعباد القبط لهم.

والثاني: لأن كل واحد ملك نفسه وأهله وماله.

والثالث: لأنهم كانوا أول من ملك الخدم من بني إسرائيل.

والرابع: أنهم جُعِلُوا ملوكاً بالمَنِّ والسَّلْوَى والحَجَر.

والخامس: أن كل من ملك داراً وزوجة وخادماً، فهو ملك من سائر الناس(١٤).

وقوله تعالى: ﴿وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾، فيه قولان: أحدهما: المن والسلوى والغمام والحجر.

الثاني: كثرة الأنبياء فيهم، والآيات التي جاءتهم(١٥).

موجبات إنزال التيه ببني إسرائيل

قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ

فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٠) وَإِذْ وَاعَدْنَا موسى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) وَإِذْ آتَيْنَا موسى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣) وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا موسى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧) وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩) وَإِذِ اسْتَسْقَى موسى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا موسى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (البقرة:٤٩-٦١).

١- النجاة من ذبح الأبناء واستحياء النساء:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾: أصله ألقيناكم على النّجاة، وهو ما ارتفع واتّسع من الأرض. هذا هو الأصل، ثم سمّي كلّ فائز ناجياً، كأنّه خرج من الضيق والشدة إلى الرخاء والراحة.

﴿مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾: أي أشياعه وأتباعه وأسرته وعزّته وأهل دينه، وأصله من الأول، وهو الرجوع، كأنّه يؤول إليك.

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ يعني يكلّفونكم ويذيقونكم أشدّ العذاب وأسوأه، وذلك أنّ (فرعون) جعل بني إسرائيل خدماً وعبيداً، وصنّفهم في أعمالهم، فصنف يبنون، وصنف يحرثون ويزرعون، وصنف يخدمون،

ومن لم يكن منهم في عمل من هذه الأعمال، فعليه الجزية (١٦).

٢- غرق آل فرعون:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾، هذا زيادة في التفصيل بذكر نعمة أخرى عظيمة خارقة للعادة، بها كان تمام الإنجاء من آل فرعون، وفيها بيان مقدار إكرام الله تعالى لهم، ومعجزة لـ(موسى) عليه السلام. وفَرَق: ومعناه: الفصل بين أجزاء شيء متصل الأجزاء، غير أن فرق يدل على شدة التفرقة، وذلك إذا كانت الأجزاء المفرقة أشد اتصالاً.

وقوله: ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ هو محل المنة وذكر النعمة، وهو نجاتهم من الهلاك وهلاك عدوهم. وقد أشارت الآية إلى ما حدث لبني إسرائيل بعد خروجهم من (مصر)، من لحاق جند فرعون بهم لمنعهم من مغادرة البلاد المصرية (١٧).

وقوله: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾، في هذه الآية لم يتحدث الحق (جل جلاله) عن (فرعون)، وإنما تحدث عن إغراق آل فرعون. لماذا؟ لأن آل فرعون هم الذين أعانوه على جبروته وبطشه وطغيانه، وهم الأداة التي استخدمها لتعذيب بني إسرائيل.

والله (سبحانه وتعالى) أراد أن يرى بنو إسرائيل آل فرعون وهم يغرقون، فوقفوا يشاهدونهم. وأنت حين ترى مصرع عدوك، تشعر بالمرارة التي في قلبك وهي تزول. ﴿وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ﴾ تحتمل معنى آخر، أي: ينظر بعضكم إلى بعض وأنتم غير مصدقين أنكم نجوتم من هذا البلاء العظيم، وفي الوقت نفسه تطمئنون وأنتم تشاهدونهم وهم يغرقون، دون أن ينجو منهم أحد، حتى لا يدخل في قلوبكم الشك، أنه ربما نجى بعضهم وسيعودون بجيش ليتبعوكم(١٨).

٣- عبادة العجل والعفو من الله تعالى:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا موسى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، هذا الوعد كان لإعطاء (موسى) المنهج، فحينما كلّم الله (سبحانه وتعالى) (موسى) بجانب الطور، كان هذا لإبلاغ (موسى) - عليه السلام - أنه رسول من رب العالمين، وأنه أرسله ليخلص بني إسرائيل من طغيان فرعون وعذابه، وأنه سيمده بآيات ومعجزات، حتى يقتنع فرعون وقومه أن (موسى) رسول من الله (تبارك وتعالى)، بعد تكليف (موسى) بالرسالة وذهابه إلى (فرعون)، وما حدث مع السحرة، ثم نجاة (موسى) وقومه، بأن شق الله (جل جلاله) لهم البحر، هذا في وقت لم يكن المنهج قد نزل بعد. ولذلك بمجرد أن نجّى الله (سبحانه وتعالى) (موسى) وقومه، وأغرق فرعون، كان

لا بد أن يتم إبلاغ (موسى) بالمنهج. وكان الوعد يشمل أربعين ليلة. هذه الليالي الأربعون حددت كثلاثين أولاً، تم أتمها الحق سبحانه وتعالى بعشر أخرى. واقرأ قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا موسى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ (الأعراف:١٤٢)، والحق سبحانه يقول: ﴿ثُمَّ اتخذتم العجل مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾، يريد أن يمّحص بني إسرائيل، ويبين لنا كفرهم بنعم الله. فالله نجاهم من آل فرعون، ولم يكادوا يعبرون البحر حتى رأوا قوماً يعبدون الأصنام، فقالوا – كما يروي لنا القرآن الكريم –: ﴿يا موسى اجعل لّنَآ إلها كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ (الأعراف: ١٣٨)، حدث هذا بمجرد خروجهم من البحر سالمين. (موسى) عليه السلام أخذ النقباء وذهب لميقات ربه، وترك أخاه (هارون) مع بني إسرائيل، وزين لهم الشيطان أن يصنعوا منها عجلاً من الذهب يعبدونه، صنعه لهم (السامري)، فأخذ الحلي، وصهرها، ليجعلها في صورة عجل له خوار، وقال لهم: هذا إلهكم وإله (موسى). وقال الله تعالى عنهم: ﴿ثُمَّ اتخذتم العجل مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾(١٩).

٤- الإيمان ولكن بشرط:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا موسى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. بعد أن تاب الله على قوم (موسى) بعد عبادتهم للعجل، عادوا مرة أخرى إلى عنادهم وماديتهم، فهم كانوا يريدون إلهاً مادياً، إلهاً يرونه، ولكن الإله من عظمته أنه غيب لا تدركه الأبصار. قال تعالى: ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار وَهُوَ اللطيف الخبير﴾ (الأنعام: ١٠٣).

فكون الله (سبحانه وتعالى) فوق إدراك البشر، هذا من عظمته (جل جلاله)، ولكن اليهود الذين لا يؤمنون إلا بالشيء المادي المحسوس، لا تتسع عقولهم ولا قلوبهم إلى أن الله (سبحانه وتعالى) فوق المادة وفوق الأبصار.

وليس أشد إفساداً للفطرة من الذل الذي ينشئه الطغيان الطويل، والذي يحطم فضائل النفس البشرية، ويحلل مقوّماتها، ويغرس فيها المعروف من طباع العبيد: استخذاء تحت سوط الجلاد، وتمرداً حين يرفع عنها السوط، وتبطراً حين يتاح لها شيء من النعمة والقوة. وهكذا كانت إسرائيل، وهكذا هي في كل حين"(٢٠).

٥- كفران النعمة:

قال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، فالله (سبحانه وتعالى)

يريد أن يمتن على بني إسرائيل بنعمه ومعجزاته، ويرينا أنه برغم كل هذه النعم، عاش بنو إسرائيل في عنادهم وتعنتهم، بعد أن طلب بنو إسرائيل أن يروا الله جهرة فقتلتهم الصاعقة، ثم بعثهم الله (تبارك وتعالى) لعلهم يشكرون. ذكر لنا الحق (جل جلاله) نعماً أخرى من نعمه على بني إسرائيل، وقال اذكروا إذ كنتم في الصحراء، وليس فيها ظل تحتمون به من حرارة الشمس القاسية، وليس فيها مكان تستظلون فيه، لأنه لا ماء ولا نبات في الصحراء، فظلل الله (سبحانه وتعالى) عليكم بالغمام، أي جاء الغمام رحمة من الله (سبحانه وتعالى)، ثم بعد ذلك جاء المن والسلوى. نوع من الحلوى اللذيذة المغذية سهلة الهضم سريعة الامتصاص في الجسم. والله (سبحانه وتعالى) جعله بالنسبة لهم وقود حياتهم، وهم في الصحراء، يعطيهم الطاقة. أما السلوى، فهي طير من السماء، ويقال إنه السمان، يأتيهم في جماعات كبيرة، لا يعرفون مصدرها، ويبقى على الأرض، حتى يمسكوا به ويذبحوه ويأكلوه.

٦- تبديل القول:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، والحق (جل جلاله) حين خاطبهم بين لنا أنهم لم يكونوا في حالة جوع شديد، بحيث يأكلون أي شيء، فقال: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً﴾، أي ستجدون فيها ألواناً كثيرة من الطعام، تغريكم على الأكل، ولو لم تكونوا جائعين.

وقوله تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾، أي: ادخلوا الباب، وأنتم في منتهى الخضوع، ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ أي: حط عنا ذنوبنا يا رب، غير أنهم حتى في الأمر يغيرون مضمونه، ويلبسون الحق بالباطل، وهذه خاصية فيهم، ولذلك دخلوا الباب وهم غير ساجدين.. دخلوه زاحفين على ظهورهم، مع أن ما أمرهم الله به أقل مشقة مما فعلوه، فكأن المخالفة لم تأت من أن أوامر الله شاقة، ولكنها أتت من الرغبة في مخالفة أمر الخالق، ليطوعوا اللفظ لأغراضهم. فكأن المسألة ليست عدم قدرة على الطاعة، ولكن رغبة في المخالفة.

٧- تفجير العيون ثم التمادي:

قال تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى موسى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾. تَعْثَوْا: عثي الظالم عثا: أفسد أشدَّ الإفساد، وبالغ في ظلمه وتكبّره وكفره (٢١).

وكان طمع (موسى) – عليه السلام – في رحمة الله بلا حدود، ولذلك فإن دعواته لقومه كانت تتوالى، وكانت الاستجابة من الله تأتي: ﴿اضرب بِّعَصَاكَ الحجر﴾. الله (سبحانه وتعالى) أراد أن يُري بني إسرائيل مدى الإعجاز، فأعطاهم الماء من الحجر الذي تحت أرجلهم، ولكن من الذي يتأثر بالضرب: الحجر أم العصا؟ العصا هي التي تتأثر وتتحطم، والحجر لا يحدث فيه شيء، ولكن الله (سبحانه وتعالى) أراد بضربة واحدة من العصا أن ينفلق الحجر. إن انفجار الماء من ضربة العصا، دليل على أن العصا أشارت فقط إلى الصخرة، فتفجر منها الماء، وحتى لو كانت العصا من حديد. يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فانفجرت مِنْهُ اثنتا عَشْرَةَ عَيْناً﴾، لماذا اثنتا عشرة عينا؟ لأن اليهود كانوا يعيشون حياة انعزال، كل مجموعة منهم كانت تسمى (سبطا)، لها شيخ مثل شيخ القبيلة. والحق تبارك وتعالى يقول: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ أي: كل سبط أو مجموعة ذهبت لمشرب. نبعت العيون من الحجر، امتدت متشعبة إلى الأسباط جميعاً كل في مكانه، ملتزماً بالأداء، فإذا فرج الله كربه، وعادت إليه النعمة، يعود إلى طغيانه. ولذلك يقول الحق (جل جلاله) فيها: ﴿كُلُواْ واشربوا مِن رِّزْق الله وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأرض مُفْسِدِينَ﴾ أي: لا يكون شكركم على النعمة بالإفساد في الأرض. كذلك حدث لبني إسرائيل، قيل لهم: ﴿كُلُواْ واشربوا مِن رِّزْق الله وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأرض مُفْسِدِينَ﴾ فأفسدوا في الأرض، ونسوا نعمة الله، فنزل بهم العذاب(٢٢).

٨- استبدال الأدنى بالذي هو خير:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا موسى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾، لقد كانوا بين الصحراء بجدبها وصخورها، والسماء بشواظها ورجومها. فأما الحجر فقد أنبع الله لهم منه الماء، وأما السماء فأنزل لهم منها المن والسلوى: عسلاً وطيراً.. ولكن البنية النفسية المفككة، والجبلة الهابطة المتداعية، أبت على القوم أن يرتفعوا إلى مستوى الغاية التي من أجلها أخرجوا من مصر، ومن أجلها ضربوا في الصحراء. لقد أخرجهم الله – على يدي نبيهم (موسى) – عليه السلام – من الذل والهوان ليورثهم الأرض المقدسة، وليرفعهم من المهانة والضعة. وللحرية ثمن، وللعزة تكاليف، وللأمانة الكبرى التي ناطهم الله بها فدية. ولكنهم لا يريدون أن يؤدوا الثمن، ولا يريدون أن ينهضوا بالتكاليف، ولا يريدون أن يدفعوا الفدية، حتى بأن يتركوا مألوف حياتهم

الرتيبة الهينة، حتى بأن يغيروا مألوف طعامهم وشرابهم، وأن يكيفوا أنفسهم بظروف حياتهم الجديدة، في طريقهم إلى العزة والحرية والكرامة. إنهم يريدون الأطعمة المنوعة التي ألفوها في (مصر). يريدون العدس والثوم والبصل والقثاء وما إليها! وهذا ما يذكرهم القرآن به. وهم يدعون في المدينة دعاواهم العريضة: ولقد تلقى (موسى) عليه السلام طلبهم بالاستنكار: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾. أتريدون الدنية، وقد أراد الله لكم العلية؟

﴿اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ ما سَأَلْتُمْ﴾..

إما بمعنى أن ما يطلبونه هين زهيد، لا يستحق الدعاء، فهو موفور في أي مصر من الأمصار، فاهبطوا أية مدينة فإنكم واجدوه فيها، وإما بمعنى عودوا إذن إلى (مصر) التي أخرجتم منها. عودوا إلى حياتكم الدارجة المألوفة. إلى حياتكم الخانعة الذليلة، حيث تجدون العدس والبصل والثوم والقثاء! ودعوا الأمور الكبار التي ندبتم لها، ويكون هذا من (موسى) عليه السلام تأنيباً لهم وتوبيخا. ﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ، وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ. ذلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

٩- غضب من الله تعالى:

قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾، لم يشهد تاريخ أمة ما شهده تاريخ إسرائيل من قسوة وجحود واعتداء وتنكر للهداة، فقد قتلوا وذبحوا ونشروا بالمناشير عدداً من أنبيائهم – وهي أشنع فعلة تصدر من أمة مع دعاة الحق المخلصين – وقد كفروا أشنع الكفر، واعتدوا أشنع الاعتداء، وعصوا أبشع المعصية. وكان لهم في كل ميدان من هذه الميادين أفاعيل ليست مثلها أفاعيل! ومع هذا كله فقد كانت لهم دعاوى عريضة عجيبة. كانوا دائماً يدعون أنهم هم وحدهم المهتدون، وهم وحدهم شعب الله المختار، وهم وحدهم الذين ينالهم ثواب الله، وأن فضل الله لهم وحدهم، دون شريك. قد طلب بنو إسرائيل من (موسى) أن يدعوا الله (سبحانه وتعالى) أن يخرج لهم أطعمة مما تنبت الأرض، وعددوا ألوان الأطعمة المطلوبة، وقالوا: ﴿مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾.. ولكنها كلها أصناف تدل على أن من يأكلها هم من صنف العبيد، والمعروف أن آل فرعون استعبدوا بني إسرائيل، ويبدو أن بني إسرائيل أحبوا حياة العبودية واستطعموها.

وقوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة والمسكنة﴾. الذلة هي المشقة التي تؤدي إلى الانكسار، وقوله تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ

الله﴾، أي غضب الله عليهم بذنوبهم وعصيانهم، حتى أصبح الغضب من كثرة عصيانهم كأنه سمة من سماتهم(٢٣).

وهكذا أسلمهم الله – وهم على أبواب الأرض المقدسة – للتيه، وحرم عليهم الأرض التي كتبها لهم، والأرجح أنه حرمها على هذا الجيل منهم، حتى تنبت نابتة جديدة، وحتى ينشأ جيل غير هذا الجيل، جيل يعتبر بالدرس، وينشأ في خشونة الصحراء، وحريتها، صلب العود.. جيل غير هذا الجيل، الذي أفسده الذل والاستعباد والطغيان في (مصر)، فلم يعد يصلح لهذا الأمر الجليل! والذل والاستعباد والطغيان يفسد فطرة الأفراد، كما يفسد فطرة الشعوب(٢٤).

العبيد وعشق الذل والهوان

قوله سبحانه: ﴿قَالُوا يَا موسى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾.

هذه هي صفات النفس المنهزمة داخلياً، والمستعبَدة، التي تهيء تربة المجتمع لاستنبات بذور الاستعباد، التي تنشئ في النفوس والقلوب أخلاقيات وسلوكيات الضعف والخوف، والخور والجبن..."كما كان بعض العبيد يرجعون باختيارهم إلى خدمة سادتهم في (أمريكا)، بعد تحريرهم كلهم، ومنع الاسترقاق بقوة الحكومة، لأنهم ألفوا تلك الخدمة والعبودية، وصارت العيشة الاستقلالية شاقة عليهم"(٢٥). إن الممارسات والهموم اليومية الفردية والعائلية، تُفقد الإنسان الطموح وعشق الحرية، وحتى التفكير بها، "ويهرب من تضحيات التحرر، بإلقاء الثقل على السلطة المستبدة، ليرتاح.. ويكون ثمن هذه الراحة هو حياة الأغلال، التي يرى الإنسان من خلالها التحرر تمرداً، والاستعلاء شذوذاً، والعزة جريمة، ومن ثم يصب نقمته الجامحة على الأحرار، الذين لا يسيرون في قافلة الرقيق.. التي تجري وراء من استغنى عنها، وتطلب محبة من ترفع عنها"(٢٦).

هذا ما نلمسه من اليهود، الذين خرجوا مع (موسى) – عليه السلام –، حيث كان أغلب اليهود، عندما ظهر (موسى) عليه السلام، "كان الذل قد رسم خطوطاً عريضة عميقة في أعصابهم... فأكثر أتباع (موسى) ألفوا الذل والهوان، ألفوا إذلال الفراعنة، وأن تنحني أصلابهم لغير الله، وأن يضربوا فلا يتألموا، لكن عدداً قليلاً من الناس سلمت فطرته، وصحت عقيدته، وعرف الدين صلة بالله ترفع الرؤوس، وتزكي النفوس، وتجعل المؤمن يجتاز دروب الحياة، وهو لا يعرف إلا ربه، ولا يبغي إلا رضاه. أما الجيل الذي ألف الدنايا، وتحمل ذل (فرعون) دون أن يتمرد، فقد فسد"(٢٧).

ولهذا نرى أن المناداة بالحرية ودعوات الإصلاح لا تنجح بين العبيد، لأنهم ألفوا الذل والهوان، والرضا بالحياة الدونية، حتى قيل في المثل: "لو أمطرت السماء الحرية، لرفع العبيد المظلات فوق رؤوسهم"، وذلك لأن الحرية تحتاج إلى العقل والتفكير، والتفكير من أخص خصائص الإنسان، فإذا فقد العبد الفكر بإرادته، فإنه لا يستطيع أن يغير معتقده، ونمط حياته، وأن يعيش بحرية. وهنا نتساءل: "لماذا يحتمل الناس طاغية لا يملك من السلطان إلا ما أعطوه، ولا من القدر على الأذى إلا بقدر احتمالهم الأذى منه؟ ولماذا يتحول الإنسان إلى كائن مسخ يتقن الكذب والتمثيل؟ ولماذا لا يرى عيباً في عبوديته، ويشعر أنها طوق يستحيل كسره، بل ربما رأى التحرر انتحاراً؟! إنه لا يوجد شيء يبرر الحط من مكانة البشر، ولا يبرر البؤس ولقمة العيش الاستسلام للعبودية، بل من حق البؤساء التمرد في وجه الانتهاك الإنساني، الذي كانوا ضحاياه المعذبين طويلاً، لأنهم إن لم يقوموا بذلك فسيدخلون في حالة الإحباط وعدم الفاعلية، ومن ثم لا يستطيعون تقديم الشهادة العلمية للحرية، ولا البقاء في ميدان الصراع من أجلها دون استسلام، ليس لأنهم مكبلون بأغلال الحديد، وإنما لأنهم مكبلون بفقدان المبادأة والمقاومة"(٢٨).

القدوة والقيادة في شخصية (موسى) عليه السلام

– الالتقاء: ونعني التقاء الداعي بالمدعوين، وبأكبر جمع ممكن، وهذا ما فعله (موسى) – عليه السلام – مع فرعون وقومه، إذ أتاهم يدعوهم إلى الله تعالى وعبادته وحده. وفي الالتقاء ببني إسرائيل عانى (موسى) – عليه السلام – من المتاعب والإيذاء، والاستهزاء والسخرية الكثير، مما يتطلب الكثير من الصبر والتحمل.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (الصف: ٥).

"وإيذاء بني إسرائيل لـ(موسى) – وهو منقذهم من فرعون وملئه، ورسولهم وقائدهم ومعلمهم – إيذاء متطاول متعدد الألوان، وجهاده في تقويم اعوجاجهم جهاد مضن عسير شاق. ويذكر القرآن في قصص بني إسرائيل صوراً شتى من ذلك الإيذاء ومن هذا العناء.

ومع هذا التبجح والعصيان والمضايقات، أتى ثمرة الالتقاء المتكرر والمعايشة المستمرة اختيار واصطفاء بعض الرجال لموعد الميقات، واختيار النقباء، فكان:

- الانتقاء: والانتقاء من النقي، وحقيقته: دهن العظام، ومجازه: لباب كل شيء(٢٩).

﴿وَاخْتَارَ موسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾ (الأعراف: ١٥٥).

واختار من الاختيار، بمعنى: الانتخاب والاصطفاء.. أي: اختار (موسى) سبعين رجلاً من قومه للميقات الذي وقته الله له، ودعاهم للذهاب معه. وهؤلاء السبعون كانوا من خيرتهم، أو كانوا خلاصتهم، لأن الجملة الكريمة جعلتهم بدلاً من القوم جميعاً في الاختيار، وكأن بني إسرائيل على كثرتهم لا يوجد من بينهم فضلاء سوى هؤلاء السبعين(٣٠).

القيادة التفويضية

فَوّض: فوض إليه الأمر: صيره إليه، وجعله الحاكم فيه(٣١).

قال تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا موسى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ موسى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٢).

ومعنى اخلفني: كن خلفاً عني، وخليفة، وهو الذي يتولى عمل غيره عند فقده، فتنتهي تلك الخلافة عند حضور المستخلف. فالخلافة وكالة، وفعل خلف مشتق من الخَلْف- بسكون اللام – وهو ضد الأمام، لأن الخليفة يقوم بعمل من خلفه عند مغيبه، والغائب يجعل مكانه وراءه(٣٢).

يعني: أن (موسى) لما أراد الذهاب لميقات ربه استخلف عليهم أخاه الكبير هارون –عليهما السلام – للحكم بينهم والإصلاح فيهم، إذ كانت الرياسة فيهم لـ(موسى)، وكان هارون وزيره ونصيره ومساعده، وأوصاه بالإصلاح فيهم وفيما بينهم، ونهاه عن اتباع سبيل المفسدين في الأرض. واتباع سبيل المفسدين يشمل مشاركتهم في أعمالهم، ومساعدتهم عليها، ومعاشرتهم والإقامة معهم في حال اقترافها(٣٣).

السياسة محورها الإصلاح

جمع (موسى) في وصيته لأخيه هارون – عليهما السلام – بقوله: ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ فإن سياسة الأمة تدور حول محور الإصلاح، وهو جعل الشيء صالحاً، فجميع تصرفات الأمة وأحوالها يجب أن تكون صالحة، وذلك بأن تكون الأعمال عائدة بالخير والصلاح لفاعلها ولغيره.

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ تحذير من الفساد بأبلغ صيغة، لأنها جامعة بين نهي- والنهي عن فعل تنصرف صيغته أول وهلة إلى فساد المنهي عنه – وبين تعليق النهي باتباع سبيل المفسدين.

فلا جرم أن كان قوله تعالى: ولا تتبع سبيل المفسدين، جامعاً للنهي عن ثلاث

مراتب من مراتب الإفضاء إلى الفساد، وهي: العمل المعروف بالانتساب إلى المفسد، وعمل المفسد، وإن لم يكن مما اعتاده، وتجنب الاقتراب من المفسد ومخالطته"(٣٤). لأن من مهام الأنظمة المستبدة "قلب الحقائق، وتزييف الوقائع، وقلب السنن ذات الارتباط بالعلاقات بين الناس، حيث تقرب البعيد، وتبعد القريب، تكبّر الصغير، وتصغّر الكبير، تقدم من حقه التأخير، وتؤخر من حقه التقديم، ترفع العملاء، وتضع العلماء، تقف مع الأغنياء ضد الفقراء، ومع الأقوياء ضد الضعفاء، ومع الفاسدين ضد الشرفاء، وتنحاز إلى صفوف الملأ ضد الجماهير، وإلى لوبيات الظالمين ضد الصالحين، وإلى جماعات الأقلية ضد تيارات الأغلبية، وتبتكر كل يوم المزيد من الأوضاع والآليات والقوانين واللوائح التي تكرس الفوارق بين تخمة الفاسدين الأرقاء، وإذلال الشرفاء الأحرار"(٣٥).

ولأن اتباع سبيل المفسدين يؤدي إلى التمزق الفكري والروحي، وجب أن يكون الإصلاح داخلياً "بإيقاف حركة التمزق التي تسود الأمة، وذلك بالقضاء على الانهزام النفسي، باللجوء إلى قوة الإيمان، التي يمكن بها مواجهة هذا التمزق، التي تكون درعاً تتكسر عليه هجمات أعداء الدين، ولن ينتصر الحق إلا برجال يضحون ويبذلون ويحتسبون، ويكونون أنصار الله في العسر واليسر والشدة والرخاء..."(٣٦).

وفي هذا درس مهم للحركات الإسلامية التي تعمل في السياسة، وتشارك في البرلمانات والحكومات ذات التوجه غير الإسلامي، أن تزج بأفرادها الخيّرين، ذوي العقول النيرة، والأفكار السديدة، وأصحاب المشاريع التي تخدم المواطن، وتحمل همومهم، وأن تراعي في ذلك أصحاب الكفاءة والنزاهة، بعيداً عن الصلات الاجتماعية والعشائرية.

نقول: لو تغلغل هذا الفكر في عقول القيادات الإسلامية، دخلت هي أيضاً في التيه، وكانت سبباً في تأخير مرحلة النصر والتمكين، وكانت سبباً أيضاً في توالي الضربات الموجعة داخلياً وخارجياً، وقد تؤدي هذه الضربات إلى التمزق والانقسام، أو الانشطار، ناهيك عن الاستقالات الجماعية، وحتى الاختراق، والتفرق شذر مذر.

العودة إلى بدايات البعثة

قال تعالى على لسان (موسى) – عليه السلام –: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي(٢٩) هَارُونَ أَخِي(٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي(٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي(٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا(٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا(٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ (طه:٢٩–٣٥).

طلب أن يعينه الله بمعين من أهله: أخاه (هارون)، فهو يعلم عنه فصاحة اللسان، وثبات الجنان، وهدوء الأعصاب، وكان (موسى) – عليه السلام – انفعالياً حاد الطبع سريع الانفعال، فطلب إلى ربه أن يعينه بأخيه، يشد أزره، ويقويه، ويتروى معه في الأمر الجليل الذي هو مقدم عليه.

والأمر الجليل الذي هو مقدم عليه يحتاج إلى التسبيح الكثير والذكر الكثير والاتصال الكثير. فـ(موسى) عليه السلام يطلب أن يشرح الله صدره، وييسر له أمره، ويحل عقدة من لسانه، ويعينه بوزير من أهله. كل أولئك لا ليواجه المهمة مباشرة، ولكن ليتخذ ذلك كله مساعداً له، ولأخيه، على التسبيح الكثير، والذكر الكثير، والتلقي الكثير من السميع البصير.. ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيراً﴾.. تعرف حالنا، وتطلع على ضعفنا وقصورنا، وتعلم حاجتنا إلى العون والتدبير(٣٧).

التوريث القيادي

ليست القيادة بالعمل البسيط أبداً، وإنما هي تكليف لا تشريف، كما شاع هذا اللفظ بحق، خاصة إذا كان المكلف بها مستشعراً واجباته تمام الاستشعار، جيد التحسس لمسؤوليته أمام الله تعالى إن قصر أو ضيع الأمانة، عارفاً بما ينتظره من حساب مضاعف، إذا تصدى لما هو أليق بغيره، وتكلف الظهور دونما اتقان عمله، والكلام في هذا عن الراشدين – رضي الله عنهم – وغيرهم كثير.

من هنا يكون القائد الحاذق، البصير بمصلحة دنياه وآخرته، ميالاً إلى عدم التفرد، حريصاً على إحاطة نفسه بأعوان كثيرين، يوزع عليهم الجهد، ويعينونه في حمل الأمانة، وإلا فإنه إن تفرد، أو طلب الأعوان فلم يجدهم: وقع في العجز، وقارب أن يستحيل عليه الإصلاح، وإبداء أثر كبير.

هكذا الدعوة أيضاً، لا بد أن تفكر بتكوين جيل قيادي مناسب في سعته لطبيعة ضخامة العمل الذي تتعرض له، ومتكامل من ناحية الاختصاصات المتنوعة (٣٨).

إن المهنة تستهلك أحسن ساعات النهار، وهي الصباح، ولا تبقى للدعوة من القيادي غير فضول الأوقات، وأكثرها إحراجاً، حتى ليأتي إلى الاجتماع بإخوانه يتثاءب، وما نظن ذلك يسوغ في العقل، ولا أن ترضى به جماعة تحترم نفسها، وتريد أن تنتصر.

إرفع الهموم المعاشية عن كاهل الداعية، ثم انظر عندئذ نتاج عقله، وكيف ستتحول خواطره إلى اقتراحات بناءة وخطط وكتابة، أو كيف تتحول طاقاته البدنية إلى مشاركة تنفيذية دائبة(٣٩).

إعداد قائد المستقبل

قال تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَان مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (المائدة: ٢٣).

(موسى) و(هارون) – عليهما السلام – لم يدخلا قرية الجبارين، وعلى أصح الأقوال أنهما ماتا في أرض التيه، ولكن (موسى) – عليه السلام – أعد من يكمل الرسالة، ويحمل راية القيادة من بعده، وهو (يوشع بن نون)، حيث هيّئه لتحمل الصعوبات في سنوات التيه، "وفي رحلته لطلب العلم، وقصته مع الرجل الصالح"(٤٠)، وهذه السنوات كانت كافية لدراسة نفسيات بني إسرائيل المهزومة والمتبجحة، "وقيل: كان (موسى) و(هارون) فيهم، وإنما توفيا في التيه، وقيل: لم يكونا فيهم، وإنما كان ذلك عقوبة عليهم، فلما ماتوا في التيه، ونشأ أولادهم، أقبل (يوشع بن نون) بأولادهم إلى الأرض المقدسة، وحارب العمالقة، ونصره الله تعالى عليهم، حتى فتح تلك المدينة"(٤١). وقال (الطبري): "ثم إن الله جل وعز لما انقضت الأربعون سنة، بعث (يوشع بن النون) نبياً، فأخبرهم أنه نبيّ، وأن الله قد أمره أن يقاتل الجبّارين، فبايعوه وصدَّقوه، فهزم الجبارين واقتحمُوا عليهم يقتُلونهم"(٤٢).

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال: لماذا مات الرسولان (موسى) و(هارون) – عليهما السلام – في التيه، ولم يدخلا الأرض المقدسة؟

نقول وبالله التوفيق: إن (موسى) – عليه السلام – أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، وكان ما كان من بني إسرائيل في مواجهة الدعوة وأوامر الله تعالى. وكما بينا أن (موسى) – عليه السلام – كان قد أعد قائد المستقبل، الذي سيكمل الرسالة من بعده، بعد أن يهلك الجيل الذي كان معه، بشكل يحقق الاستمرار على تكملة المهمة، بالدخول إلى الأرض المقدسة، والتوازن في ظل أي متغيرات قد تحدث أو تصدر في المجتمع الجديد. وهذا ما يسمى في العصر الحديث بـ(أنظمة الاستقرار)، وهي الأنظمة التي لا ترتبط بأشخاص معينين مدى الحياة، مهما كان وضعهم، ومهما كان تاريخهم، ومناصبهم، ومهما قدموا من خدمات وتضحيات، "ارتباطاً مباشراً يزول بزوالهم، أو يتغير بتغيرهم، وهي بالتالي لا تفقد فعاليتها أو حيويتها أو قدرتها واستقرارها واستمرارها إذا ما ذهب أشخاص بعينهم، أو أتى غيرهم بدلاً منهم"(٤٣).

وهذا ما نراه أن النظام والحكم ظلا مستقرين بعد (موسى) و(هارون) عليهما السلام، في المدة المتبقية بعد وفاتهما، حتى تسلم الرسالة (يوشع بن نون) – عليه السلام – وأكمل المهمة، ولم يخمد حماس إكمال

المهمة في قلبه، ولم تهتز أركان القيادة بزوال القائد القدوة، لأن الرؤية كانت واضحة، والتخطيط كان موضوعاً، والهدف كان مقاساً ومحدوداً، أي أنه كان يسير وفق أهداف تكتيكية وخطة استراتيجية، مع مشروع حضاري، جعل من أبناء وأحفاد التائهين أبطالاً وقادة يقاتلون الجبابرة.

وفي مدة سنوات التيه تمكن (يوشع بن نون)، ومن معه، من بناء الإنسان الرسالي، "إنسان الفكرة – إنسان المبادرة – الإنسان المنتصر على اليأس والقلق – الإنسان المثابر – الإنسان صاحب اليد العليا – الإنسان صاحب الشعور بالمسؤولية – إنسان ثابت على المبدأ وإن طال الزمن – إنسان له إرادة صلبة لا تتزعزع أمام الصعاب – إنسان يمتلك الأمل والطموح – إنسان يمتلك الروح الإيجابية – إنسان الحكمة – إنسان يجيد إدارة فن الممكن – إنسان يرتقي بالهموم ويعيشها..."، والإنسان الرسالي: هو الشرط الأساس للتحرر من العبودية، إذ بدونه أي تقدم نحو الحرية هو في حقيقته خطوة نحو القهر والذل.. وبناء الإنسان الرسالي لا يتم بين ليلة وضحاها، ولكنها مهمة صعبة ودقيقة، تحتاج فيها إلى (فقه الرواحل)، وإلى جهد كبير، وصبر طويل، لتفريغ الإنسان من كل ما يشعره ويخيفه مما يملكه المستبدون، وإرجاع أمور الحياة كلها إلى الله تعالى، باعتباره خالق الحياة. وتصوير قوى الظلم والاستبداد بصورتها الواقعية، التي تتكشف فيه عن مخلوقات وكائنات لا تملك لنفسها، ولا لغيرها، ضراً ولا نفعاً. وهذا ما رأيناه في دول الربيع العربي، حيث كيف كانت نهاية المستبدين وأعوانهم، وما زال عرض المسرحية مستمراً، ولم تنته المشاهد بعد..

علاقة التيه بظلم الفراعنة

تمضي قصة موسى (عليه السلام) مع قومه بني إسرائيل، بعد إذ أنجاهم الله من عدوهم، وأغرق (فرعون) وملأه، ودمر ما كانوا يصنعون، وما كانوا يعرشون. إن (موسى) – عليه السلام – لا يواجه اليوم طاغوت (فرعون) وملئه، فقد انتهت المعركة مع الطاغوت المستبد(٤٤)، ولكنه يواجه معركة أخرى – لعلها أشد وأقسى وأطول أمداً – إنه يواجه المعركة مع "النفس البشرية!"، يواجهها مع رواسب الجاهلية في هذه النفس، ويواجهها مع رواسب الذل، الذي أفسد طبيعة بني إسرائيل، وملأها بالالتواء من ناحية، وبالقسوة من ناحية، وبالجبن من ناحية، وبالضعف عن حمل التبعات من ناحية. وتركها مهلهلة بين هذه النزعات جميعاً.. فليس أفسد للنفس البشرية من الذل والخضوع للطغيان طويلاً، ومن الحياة في ظل الإرهاب والخوف والتخفي والالتواء لتفادي

الأخطار والعذاب، والحركة في الظلام، مع الذعر الدائم والتوقع الدائم للبلاء! ولقد عاش بنو إسرائيل في هذا العذاب طويلاً، عاشوا في ظلال إرهاب، وفي ظل الوثنية الفرعونية كذلك.

عاشوا يقتل (فرعون) أبناءهم، ويستحيي نساءهم، فإذا فتر هذا النوع البشع من الإرهاب الوحشي، عاشوا حياة الذل والسخرة والمطاردة على كل حال، وفسدت نفوسهم، وفسدت طبيعتهم، والتوَت فطرتهم، وانحرفت تصوراتهم، وامتلأت نفوسهم بالجبن والذل من جانب، وبالحقد والقسوة من الجانب الآخر، وهما جانبان متلازمان في النفس البشرية، حيثما تعرضت طويلاً للإرهاب والطغيان..

عملية استصلاح نفوس بني إسرائيل من ذل الطاغوت الفرعوني، هي التي سيواجهها (موسى) عليه السلام بعد خروجه ببني إسرائيل من (مصر)، وتجاوزه بهم البحر، وهي تواجه الحرية بكل رواسب الذل، وتواجه الرسالة بكل رواسب الجاهلية، وتواجه (موسى) عليه السلام بكل الالتواءات والانحرافات والانحلالات والجهالات، التي ترسبت فيها على الزمن الطويل!

إن العهد لم يطل بهم منذ أن كانوا يسامون الخسف في ظل الوثنية الجاهلية عند (فرعون) وملئه، ومنذ أن أنقذهم نبيهم وزعيمهم (موسى) عليه السلام – باسم الله الواحد – رب العالمين –، الذي أهلك عدوهم، وشق لهم البحر، وأنجاهم من العذاب الوحشي الفظيع، الذي كانوا يسامون.. إنهم خارجون للتو واللحظة من (مصر) ووثنيتها، ولكن ها هم أولاء ما إن يجاوزوا البحر حتى تقع أبصارهم على قوم وثنيين، عاكفين على أصنام لهم، مستغرقين في طقوسهم الوثنية، وإذا هم يطلبون إلى (موسى) – رسول رب العالمين – الذي أخرجهم من (مصر) باسم الإسلام والتوحيد، أن يتخذ لهم وثناً يعبدونه من جديد! ﴿وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ، فَأَتَوْا عَلى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلى أَصْنامٍ لَهُمْ. قالُوا: يا موسى اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ﴾! إنها العدوى تصيب الأرواح، كما تصيب الأجسام! ولكنها لا تصيبها حتى يكون لديها الاستعداد والتهيؤ والقابلية. وطبيعة بني إسرائيل – كما عرضها القرآن الكريم عرضاً صادقاً دقيقاً أميناً في شتى المناسبات – طبيعة مخلخلة العزيمة، ضعيفة الروح، ما تكاد تهتدي حتى تضل، وما تكاد ترتفع حتى تنحط، وما تكاد تمضي في الطريق المستقيم حتى ترتكس وتنتكس، ذلك إلى غلظ في الكبد، وتصلب عن الحق، وقساوة في الحس والشعور!

وها هم أولاء على طبيعتهم تلك، ها هم أولاء ما يكادون يمرون بقوم يعكفون على أصنام لهم، حتى ينسوا تعليم أكثر من عشرين عاماً، منذ أن جاءهم (موسى) – عليه السلام – بالتوحيد. فقد ذكرت بعض الروايات أنه أمضى في (مصر) ثلاثة وعشرين عاماً، منذ أن واجه (فرعون) وملأه برسالته، إلى يوم الخروج من (مصر) مجتازاً ببني إسرائيل البحر. بل حتى ينسوا معجزة اللحظة التي أنقذتهم من (فرعون) وملئه، وأهلكت هؤلاء أجمعين! وهؤلاء كانوا وثنيين، وباسم هذه الوثنية استذلوهم(٤٥).

سموم العبودية

الإنسان الذي لا يمارس الحرية، ولا يسعى لانتزاعها، يضمحل فكرياً، وينهزم نفسياً، ولا يجرؤ على المواجهة، ويرضى بذل العبودية تسري في عروقه، ولا يشعر بآلام الاستبداد المحيطة به، لأنه لا يقدّر قيمة الحرية.

الذين يصنعون الطغاة هم الذين يرضون بالعبودية.. إنهم يهربون من الحرية، فإذا طردهم سيد، بحثوا عن سيد آخر، لأن في نفوسهم حاجة ملحة إلى العبودية. لأن لهم حاسة سادسة، أو سابعة، حاسة الذل، لا بد لهم من إروائها، فإذا لم يستعبدهم أحد، أحسّت نفوسهم بالظمأ إلى الاستعباد، وتراموا على الأعتاب، يتمسحون بها، ولا ينتظرون حتى الإشارة من إصبع للسيد، حتى يخروا له ساجدين!!

إنهم إذا أطلقوا، حسدوا الأرقاء الباقين في الحظيرة، لأن الحرية تخيفهم، والكرامة تثقل كواهلهم، لأن حزام الخدمة في أوساطهم، هو شارة الفخر التي يعتزون بها. إنهم لا يجدون أنفسهم إلا في سلاسل الرقيق، وفي حظائر النخاسين، فإذا انطلقوا تاهوا في خضم الحياة، وضلوا في زحمة المجتمع، وفزعوا من مواجهة النور، وعادوا طائعين يدقون أبواب الحظيرة، ويتضرعون للحراس أن يفتحوا لهم الأبواب"(٤٦).

انظر إلى العبيد من بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (البقرة: ٦١).

علاقة الفسق بالتيه

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً

يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (المائدة:٢٥-٢٦).

معاني المفردات:

فَافْرُقْ بَيْنَنَا: اقض بيننا وبينهم، وافتح بيننا وبينهم (٤٧)، بأن تحكم لنا بما نستحقه، وتحكم عليهم بما يستحقونه، أو بالتبعيد بيننا وبينهم، وتخليصنا من صحبتهم(٤٨).

الفسوق، أصل الفسق: الخروج عن الاستقامة، والجور، وبه سمي العاصي فاسقاً(٤٩). فسَق الرَّجلُ عن أمر الله: عصى وجاوز حدود الشَّرع، خرج عن طاعة الله، انغمس في الملذّات (٥٠).

تَأْسَ: الأَسَى: الحُزْنُ على الشَّيء(٥١).

خلاصة شهادة (موسى) – عليه السلام – على قومه، مدة إقامته بينهم، ودعوتهم لعبادة الله، اختصرت في تسميتهم بـ(الْفَاسِقِينَ)، حتى قال الله تعالى عنهم، مستجيباً لدعاء نبيه، دعوة فيها الألم، وفيها الالتجاء، وفيها الاستسلام، وفيها – بعد ذلك– المفاصلة والحسم والتصميم! وإنه ليعلم أن ربه يعلم أنه لا يملك إلا نفسه وأخاه.. ولكن (موسى)، في ضعف الإنسان المخذول، وفي إيمان النبي الكليم، وفي عزم المؤمن المستقيم، لا يجد متوجهاً إلا لله، يشكو له بثه ونجواه، ويطلب إليه الفرقة الفاصلة بينه وبين القوم الفاسقين، فما يربطه بهم شيء، بعد النكول عن ميثاق الله الوثيق.. ما يربطه بهم نسب، وما يربطه بهم تاريخ، وما يربطه بهم جهد سابق، إنما تربطه بهم هذه الدعوة إلى الله، وهذا الميثاق مع الله.

هذا هو أدب النبي، وهذه هي خطة المؤمن، وهذه هي الآصرة التي يجتمع عليها أو يتفرق المؤمنون..

لا جنس، لا نسب، لا قوم، لا لغة، لا تاريخ، لا وشيجة من كل وشائج الأرض، إذا انقطعت وشيجة العقيدة، وإذا اختلف المنهج والطريق.

واستجاب الله لنبيه، وقضى بالجزاء العدل على الفاسقين ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (٥٢).

وهكذا ظلوا أربعين سنة يتيهون في الأرض، حتى هلكت الأجيال الجبانة الفاسقة، التي استطابت الدنايا والمذلة، والذين يستحبون الخنوع، ويرتضون الدنية، وتكونت أجيال أخرى من بعهدهم، تعرف الله، وتحب رضاه، وتبذل حياتها في سبيله. ثم دخل اليهود بعد ذلك فلسطين يقاتلون الجبابرة.

وفي هذا العقاب الإلهي لعبرة لأولي الألباب، يستفيدون منها أن الشعوب التي تنشأ في مهد الاستعباد تذهب أخلاقها، ويذهب بأسها، وتضرب عليها الذلة والمسكنة، وتأنس بالمهانة، وإذا طال عليها الأمد أصبحت تلك الصفات غرائز وطباعاً

خلقية لها، فإذا خرجوا من بيئتهم، ورفع عنهم نير الظلم والاستعباد، حنّوا إلى ما كانوا فيه، وتاقت نفوسهم إلى الرجوع إليه، وهذا شأن البشر في جميع ما يألفون، ويجرون عليه من خير وشر(٥٣).

الزمن جزء من العلاج

اليهود الذين ألفوا المهانة والاستعباد، والذل والمسكنة، أضيف إلى ذلك التيه أربعين سنة، لجحودهم وعنادهم على أوامر الله تعالى، كجزء من التحول من العبودية إلى الحرية، لأن تغيير المجتمعات سنة من سنن الله تعالى في الكون، "وقد أثبتت التجارب العالمية أن التغييرات السريعة، والتحولات الجذرية العنيفة، قليلة الفائدة، كثيرة الضرر، حيث أن قدرة الأنظمة الاجتماعية على تقبل الجديد محدودة، فإذا ما اتخذ التغيير شكل دفق عنيف متتابع، فإن ذلك يؤدي إلى تفسخ الأنظمة، وإظهار عجزها عن هضم التغييرات الجديدة... مما يعني في النهاية نوعاً من الاختلال في التوازنات العميقة للمجتمع، وذلك لا يمر دون مقاومة وردود أفعال طائشة، تؤدي في النهاية إلى انقسام الوعي الاجتماعي على نفسه"(٥٤). و"هنا نتساءل: كم من الزمن يحتاج إليه التغيير أو التحول الذي ننشده؟ يجب أن نعلم أن الزمن جزء من العلاج، وأن من المستحيل أن تبلغ مناك بين عشية وضحاها، إذا كان قدر الله أن هذه الأماني لا تتحقق إلا خلال السنين الطوال.

وقد اختلف علماء الاجتماع فقال بعضهم: يمكن أن تتكون أمة خلال أربعين سنة، ولعلهم نظروا في هذا إلى ما حكاه القرآن الكريم عن بني إسرائيل، عندما رفضوا أن يدخلوا الأرض المقدسة. قال العلماء: أربعون سنة يمكن أن تكون فترة تغيير لتحول المجتمع من الفوضى إلى النظام، ومن الفرقة إلى الوحدة، إلى غير ذلك.

الطريق إلى التيه

للسير في طريق التيه آفات، ووسائل متعددة، تنخر في جسم الفرد والمجتمع، "وآفة المجتمع اليوم، أو أزمة الناس، في أخلاقهم، وسوء معاملتهم لغيرهم، فربما سهل على الإنسان ملازمة فروض العبادة والطاعة، وأدائها في أوقاتها، ولكن ليس من السهل الحكم على الاستفادة من هذه العبادة، والتجاوب مع أغراضها التهذيبية، في شؤون المعاملة الخاصة والعامة، فهذا هو المحك الحقيقي للحكم على صدق المسلم أو المسلمة، واحترام قيم الدين وآدابه، والاقتناع بمبادئه، وإدراك الانسجام بين المبدأ والتطبيق، وهو المعبر عنه بالمصداقية.

كم من الشكاوى المريرة من تصرفات أناس معروفين بالتدين، لكنهم غرباء في الواقع عن الدين والأخلاق الإسلامية في المعاملات، وكأن الدين عبادة فقط، ويهملون

كل أو أغلب أحكام الإسلام، وفي شؤون المال خاصة، ويحللون ويحرمون وفق أمزجتهم وأهوائهم ومصالحهم، ضاربين عُرض الحائط بكل فضيلة، أو حكم ديني في صميم المعاملة والإذعان للحق ومنهج الاستقامة "(٥٥).

وإن أهم الأسباب الدافعة إلى هذا النخر، هو ذلك الفصام النكد لدى كثير من الناس بين الدين والدنيا، بين المسلم في محرابه متبتلاً، وبينه في سوقه متمولاً، بين الصائم نهاره طاعة لله، ثم هو في ليله مقترف لمعاصي الله، باحث عن الشهوات والملذات، وإن كانت من المحرمات.. إنه الانفصام النكد، الذي يجعل بعض الصائمين والمصلين ينسون أوامر الله في أعمالهم، فإن كان تاجراً غش وأقسم زوراً، لا يعنيه شيء من أمر الحلال والحرام، ما دامت سلعته رائجة، وتجارته غير كاسدة. وإن كان موظفاً ربما وقع في الرشا، وأهمل العمل، ولم يؤده بالشكل المطلوب المتقن(٥٦) ❑

الهوامش:

(١) صحيح ابن حبان: (رقم: ٧٤٨١).
(٢) المنذري، الترغيب والترهيب: (رقم:٣٣٣٢)، رَوَاهُ الْبَزَّار وَالطَّبَرَانِيّ من طَرِيق كثير بن عبد الله الْمُزنِيّ وَهُوَ واه وَقد احْتج بِهِ التِّرْمِذِيّ وَأخرج لَهُ ابْن خُزَيْمَة فِي صَحِيحه وَبَقِيَّة إِسْنَاده ثِقَات.
(٣) محمد الغزالي، الإسلام والاستبداد السياسي: (ص٦٨).
(٤) فؤاد البنا، الإيدز الأسود: (ص٦-٧).
(٥) مجدي الهلالي، عودة الروح ويقظة الإيمان: (ص٣٣)، بتصرف.
(٦) خالص جلبي، قوانين التغيير: (ص١٨٨).
(٧) مجدي الهلالي، عودة الروح ويقظة الإيمان: (ص٣٣)، بتصرف.
(٨) جزء من حديث متفق عليه، رواه مسلم: باب تحليل الغنائم لهذه الأمة: (٣٢/٤٥٧٦-١٧٤٧)، البخاري: (رقم:٣١٢٣) عن أبو هريرة رضي الله عنه.
(٩) رعودة الروح ويقظة الإيمان: (ص٣٤).
(١٠) شرح النووي لصحيح مسلم: (٣٢٨/٦).
(١١) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار): (٢٧٨/٢-٢٧٩).
(١٢) في ظلال القرآن: (٨٦٩/٢).
(١٣) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: (ص٢٣٧-٢٣٨).
(١٤) الماوردي، النكت والعيون: (٢٤/٢).
(١٥) نفسه.
(١٦) الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن: (١٩١/١).
(١٧) التحرير والتنوير: (٤٩٤/١، ٤٩٥).
(١٨) خواطر الشعراوي: (٣٣١/١).
(١٩) خواطر الشعراوي: (٣٣٤/١-٣٣٦).
(٢٠) في ظلال القرآن: (٧٢/١).
(٢١) معجم اللغة العربية المعاصرة: (١٤٥٧/٢).
(٢٢) الخواطر: (٣٥٨/١-٣٦٢)، بتصرف.
(٢٣) الخواطر: (٣٦٤/١، ٣٦٧).
(٢٤) في ظلال القرآن: (٨٧١/٢).

(٢٥) تفسير المنار: (٦/٢٧٥).
(٢٦) محمد محمد بدري، نحو مجتمع الحرية: (ص١٥-١٦).
(٢٧) خطب الشيخ الغزالي: (٥/١٥١-١٥٢).
(٢٨) نحو مجتمع الحرية: (ص١٥، ١٦).
(٢٩) تفسير المنار: (٩/١٨٥).
(٣٠) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: (١/١٦٩٩).
(٣١) لسان العرب: (٧/٢١٠).
(٣٢) التحرير والتنوير: (٩/٨٧).
(٣٣) تفسير المنار: (٩/١٠٦).
(٣٤) التحرير والتنوير: (٩/٨٧-٨٨).
(٣٥) الإيدز الأسود: (ص٨) بتصرف يسير.
(٣٦) جاسم بن مهلهل الياسين، تأملات في ثقافة التغيير: (ص١٦٣-١٦٤)، بتصرف.
(٣٧) في ظلال القرآن: (٤/٢٣٣٣).
(٣٨) محمد أحمد الراشد، المسار" نظرية الأجيال القيادية ": (ص٥٠٣ وما بعدها).
(٣٩) نفسه: (ص٥٣٠).
(٤٠) يراجع سورة الكهف الآيات: (٦٠-٦٥).
(٤١) أبو المظفر السمعاني، تفسير القرآن:(٢/٢٨).
(٤٢) الطبري، جامع البيان: (٢/١٩٢).
(٤٣) سيكولوجية السلطة: (ص٥٦).
(٤٤) الاستبداد لغة هو غرور المرء برأيه، والأنفة عن قبول النصيحة، أو الاستقلال في الرأي، وفي الحقوق المشتركة. وفي اصطلاح السياسيين: هو تصرف فرد أو جمع في حقوق قوم بالمشيئة، وبلا خوف تبعة... ومن صفات المستبد: التحكم في شؤون الناس بإرادته لا بإرادتهم، ويحكم بهواه لا بشريعتهم، المستبد عدو الحق، عدو الحرية وقاتلها، المستبد يتجاوز الحد ما لم ير حاجزا من حديد، المستبد إنسان مستعد بالطبع للشر، ويود أن تكون رعيته كالغنم... والنتيجة أن المستبد فرد عاجز، لا حول له ولا قوة إلا بالمتمجدين... يراجع: عبدالرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد: (ص٢٣-٢٨، ٦٠).
(٤٥) في ظلال القرآن: (٣/١٣٦٤-١٣٦٧).
(٤٦) سيد قطب، دراسات قرآنية: (ص١٢٩-١٣١)، بتصرف يسير.
(٤٧) تفسيرالطبري: (١٠/١٨٩).
(٤٨) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: (٢/١٢٢).
(٤٩) النهاية في غريب الحديث: (٣/٤٤٦).
(٥٠) معجم اللغة العربية المعاصرة: (٣/١٦٧٤).
(٥١) العين: (٧/٣٣٢).
(٥٢) في ظلال القرآن: (٢/٨٧٠-٨٧١).
(٥٣) خطب الشيخ محمد الغزالي: (٥/١٥٥).
(٥٤) عبدالكريم بكار، من أجل انطلاقة حضارية شاملة: (ص١٨٤).
(٥٥) وهبه الزحيلي، أخلاق المسلم: (ص١١-١٢).
(٥٦) تأملات في ثقافة التغيير: (٢٦-٢٧)، بتصرف.

قراءات سياسية

القضية الكوردية
من التأثر إلى التأثير

أحمد الزاويتي

عانت كوردستان كثيراً من كونها مركز التأثر الإقليمي، خاصة في المائة سنة الأخيرة، فهي كانت الأكثر تأثراً باتفاقية (سايكس – بيكو)، بعد الحرب العالمية الأولى، حيث حُرم أكبر شعب في المنطقة من أن تكون له دولة، ولم يقف التأثر بالمتغيرات الجيوسياسية عند حد الحرمان من الدولة وحسب، بل توسع إلى حد أن يعاني كل جزء من أجزاء كوردستان، في دولها الجديدة (تركيا، إيران، العراق، سوريا) من حرب للقضاء على الوجود الكوردي كجغرافيا (وطن)، وكإنسان (مواطن)، خاصة بعد ثورات اندلعت رفضاً للواقع الجديد. ففي تركيا قامت ثورة الشيخ (سعيد بيران) عام ١٩٢٥، وأفرزت حالة عداء تركية للقضية الكوردية، بدأت بإعدام الشيخ (سعيد بيران)، مع قيادات الثورة، وقتل ١٥ ألف من الثوار الكورد، وإزالة ٢١٠ قرية من الوجود، ونهب ممتلكات وثروات كل من وصلت إليه أيدي الجنود الأتراك، وتهجير مئات الآلاف من الكورد إلى الدول المجاورة.

وقد امتدت حالة رفض الوجود الكوردي كقضية شعب، إلى ما يقرب ثلاثة أرباع القرن، واستمرت كوردستان الشمالية في حالة شبه حرب، نسي بسببها ملايين الكورد هناك لغتهم، وتركوا ديارهم ليذوبوا في المجتمع التركي تماماً، وليتحول الجزء الكوردي من تركيا إلى أفقر المناطق، رغم أنه في الأصل أكثر المناطق من حيث الغنى في مجالات المياه والأراضي الزراعية، بل حتى النفط والثروات الأخرى.

وبعد قرن من الزمن، وبعد استمرار النضال الكوردي في تركيا، واقتناع الحاكمين هناك بأن القضية الكوردية أصبحت تتحول من مركز التأثر إلى مركز التأثير، بدأوا يراجعون حساباتهم، ويضعون خططاً لحل المشكلة، ويعيدون الاعتراف بأن هناك مشكلة ويجب أن تحل، وهي أولى نتائج التحول من التأثر إلى التأثير.

ما تحدثنا عنه يظهر أكثر جلاءً في كوردستان الجنوبية (العراق)، التي سبقت كوردستان الشمالية عندما قام الشيخ (محمود الحفيد) بثورته في (السليمانية)، وأعلن عن (مملكة كوردستان) عام ١٩١٩، فيما لم يكن قد أُعلن عن (العراق) بعد. لكن ثورة الشيخ (محمود) اصطدمت بإرادة المستعمر البريطاني، الذي تصدى بكل عنف لثورة (الحفيد)، وقضى البريطانيون باسم العراق الجديد على الثورة. وبعد ذلك اندلعت ثورات (الملا مصطفى

البارزاني)، التي بدأت في أربعينيات القرن الماضي، واستمرت حتى منتصف السبعينيات، لتخمد، ثم تتجدد بقيادة شباب شبّوا على الثورة، وهم (مسعود البارزاني، و(جلال الطالباني)، و(سامي عبدالرحمن)، وآخرين، وصولاً إلى الانتفاضة عام ١٩٩١.

انتقلت حالة العداء الاستعماري للإرادة الكوردية في (العراق) من المستعمر إلى السلطات العراقية، التي شكّلها الاستعمار، بدءاً من الملكية، ومروراً بالجمهورية، ولا تزال حالة العداء الاستعماري موجودة في كل سلطة عراقية تحكم في (بغداد)، وحتى الآن، رغم أن الكورد في (العراق) يرون أنفسهم حالياً جزءاً من تلك السلطة.

كانت كوردستان مركز تأثر سلبي نتيجة عداء أنظمة الحكم المركزية في (العراق) للقضية الكوردية، فنتج عن هذه الحالة دمار ٤٥٠٠ قرية، وقتل ما يقارب النصف مليون إنسان خلال مائة سنة، وتهجير مثل هذا العدد من موطنهم.

لم يتنفس الكورد الصعداء في (العراق) إلا بعد أن تحولت القضية الكوردية في (العراق) من حالة التأثر إلى حالة التأثير حالياً، فـ(أربيل) أصبحت مركزاً لحل ما يمر به (العراق) من أزمات سياسية وأمنية وعسكرية، ويجب أن تستمر كوردستان في حالة التأثير حتى تصل إلى حالة من الاستقرار تكسب معها ما فقدته خلال قرن.

أما لو تحدثنا عن كوردستان الشرقية (إيران)، والغربية (سوريا)، فنستطيع القول بأنه رغم أن كوردستان في (إيران) واكبت ثورات كوردستان في (تركيا) وفي (العراق)، ففيها تم الإعلان عن (جمهورية مهاباد)، ومن ثم تم القضاء عليها بتواطؤ دولي مع السلطات الإيرانية، ومن ثم أصبحت كوردستان ضحية ظلم إيراني استمر حتى الآن، فرغم ثورات ونضال الكورد إلا أنه لم تستطع كوردستان الشرقية أن تنتقل من حالة التأثر إلى حالة التأثير، ولا تزال كوردستان هناك تعيش حالة التأثر السلبي من عداء النظام للقضية الكوردية في إيران.

كذلك كانت القضية الكوردية في (سوريا)، التي لم تعش ثورة ولا مقاومة أو مواجهة مع النظام إلا مؤخراً، بعد الثورة السورية، فالقضية الكوردية في (سوريا) كانت – ولا زالت – أسيرة التحرك الكوردي في الشمال (تركيا)، والجنوب (العراق)، سواء بموالاة (حزب العمال الكوردستاني)، وقبول فكر (عبدالله أوجلان)، أو بموالاة (الحزب الديمقراطي الكوردستاني)، بزعامة (الملا مصطفى البارزاني) – سابقاً – و(مسعود البارزاني) – حالياً – وكذلك موالاة (الاتحاد الوطني الكوردستاني)، بزعامة (جلال الطالباني). وكان سبب ذلك أن السلطات السورية لم تعترف – ولا تزال – بوجود كوردي في (سوريا)، وكان الكورد هناك محرومون حتى من انتمائهم السوري، ولم تتبلور القضية الكوردية في (سورية) عن نموذج خاص بها، وربما ما يجري في (كوباني) الآن من مقاومة بطولية ضد مسلحي (داعش)، والاهتمام الدولي بهذه المقاومة، في وقت تشكل فيه تحالف دولي ضد (داعش)، قد يبلور نموذجاً خاصاً للقضية الكوردية في (سوريا)، يحول القضية من حالة التأثر إلى حالة التأثير مستقبلاً❐

مقالات

تحديات تواجه الصحوة الإسلامية المعاصرة.. ومقترحات حلول



د. عمر عبد العزيز

من المعلوم أن بزوغ الصحوة الإسلامية ظاهرة تاريخية معاصرة، ولّدها سقوط الخلافة العثمانية، وهيمنة الدول الاستعمارية، وحالة التفكيك السياسي في الأمة الإسلامية، ثم الاختلال العقديّ الذي روّج له دعاة العلمانية المتطرفة باسم التنوير، ثم التدهور الخلقي والقيمي، والدعوة للتغريب والتبعية الثقافية، باسم التطوير والتحديث والمواكبة.

وبعد أن بدأت الأمة ترزح تحت هول هذا المثلث اللعين، هبّ رجال مجدّدون ومصلحون كبار لإذكاء روح المقاومة، بالدعوة إلى العودة إلى الإسلام عقيدة، والتمسك بأحكامه وقِيَمِه شريعة، بل النهوض ضد المستعمر المحتل، والدعوة لإعادة مجد الأمة وعزّها.

بعد هذه الانتفاضة الوسيعة – التي تلت غفوة لم تدم طويلاً – ورغم نجاح الصحوة في إعادة ملامح الإسلام إلى أبناء الأمة، وتقدّمها في مجال إحياء العاطفة الدينية في قلوبهم، ورغم انتشارها المكثف في شرق الوطن الإسلامي وغربه، رغم كل ذلك، نلاحظ ونشهد كثيرا من الإخفاقات، وقصورا خطيرا في الأداء، كما نلاحظ أن هذه الصحوة تواجَه الآن بتحديات خطيرة، سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي، قد يكون من الصعب تحديدها حصرا، إلا أنني أحاول أن ألقي ضوءاً على أهمها في نقاط، لأنني لست مع العاطفيين الذين يطبقون الطرف عما يجري حولهم ويحدث من المشاكل والإخفاقات العديدة المتنوعة:

• تحديات على الأصعدة الداخلية:

بما أن المعوقات والمشاكل الداخلية التي تعترض طريق الصحوة – التي تقودها حركات وقوى إسلامية عديدة – كثيرة ومتشعبة وطاغية على ميادين عديدة، أضطر أن أشير إلى أبرز أصعدتها ومجالاتها في نقاط مركزة:

أولاً/ على الصعيد الفكري: يمكن الإشارة إلى تحدي أنماط عديدة من الغلو في الدين، والتطرف الفكري، وطغيان المفاهيم المغلوطة، والخلط بين بعض الأحكام الشرعية، كما حدث في التعامل مع مفهومي (القتال والجهاد)، و(التعامل مع غير المسلمين من المحاربين والمسالمين)، وكذلك ما حدث في مجال التعامل مع قضايا المرأة، والشباب، والفنون، وبعض الظواهر الحضارية، التي لعبت دورا خطيرا في تشويه صورة الإسلام.

ثانياً/ على الصعيد السياسي: نشير إلى تحدي انعدام الرؤية السياسية تجاه قضايا ساخنة معاصرة، كمشكلة القوميات وقضاياها، والأقليات غير المسلمة، والتعامل معها، وموجة العولمة والحداثة، وخطر الثورة الإعلامية العارمة، وتكنولوجيا الاتصالات، وغيرها..

ثالثاً/ على الصعيد الحضاري: يمكن الإشارة إلى التخلف الحضاري للشعوب المسلمة، المتمثل في: ضعف تطوير المكاسب، وفقدان الذاتية، وتدني الهمّة، والانبهار بالغرب، وسريان روح التبعية والاتكالية والإمعّية، والكسل والبطالة..

رابعاً/ على الصعيد المنهجي: يمكن ذكر تحدّي فقدان رؤية فكرية واضحة تجاه التعامل مع كثير من معطيات العصر ومستجداته، وانعدام ما يمكن أن نسميه (فقه المرحلة)، أو (فقه العصر)، وعدم التفريق الكامل بين الابتداع – كأمر مرفوض – والإبداع، كسُنّة كونية إسلامية مطلوبة.

خامساً/ على الصعيد السلوكي والتربوي: نلمس ظاهرة تدني السلوك الإسلامي الأصيل، وتدهور الأخلاق والفضائل العالية، وطغيان الشكليات على الجواهر والمضامين، والمظاهر على المضامر والمقاصد.

سادساً/ على صعيد المؤسسات والآليات: يعاني أبناء الصحوة من كثرة المشاريع الإصلاحية النظرية، وتعدد الفئات والجماعات والمؤسسات الدعوية والسياسية، مع انعدام مشروع ناضج لتنسيق يناسب المرحلة. وكذلك كثرة الخلافات الجزئية، التي تستهلك طاقات شباب الصحوة وقياداتها، وتجعلها منشغلة بمشاكلها الداخلية في أكثر الأوقات، وعلى رأسها جدليّة العلاقة بين العمل الدعوي والعمل السياسي.

سابعاً/ على الصعيد الاجتماعي والثقافي: يمكن التنويه بالخلط الحاصل بين التقاليد



الاجتماعية والقيم الإسلامية، واللجوء إلى التأويلات غير المسوّغة، سعيا لتلوين التقاليد بصبغة دينية، لا سيما في مجال التعامل مع قضايا المرأة والفن والأعراف الاجتماعية، وكثرة اللجوء إلى قاعدة (سد الذرائع)، دون استناد علمي، وتقصٍّ شرعي.

ثامناً/ على الصعيد الإداري: يمكن ذكر قلة الإتقان المطلوب في معظم الأمور، وضآلة الإحسان المأمور به، وضعف الجودة التي علّمناها الإسلام الحنيف، في معظم الميادين الإدارية، وانعدام شبه كامل في توظيف الطاقات، بل كشفها وتشخيصها من الأساس، وغياب ظاهرة دراسة السيناريوهات والخيارات، التي استلهمها الغربيون من مناهج علمائنا التجريبيين، الذين تحدثوا عن: أحسن الاحتمالات، وأحسن الأقوال، وأحسن الأعمال، وأقوى الآراء، وأرجح الاجتهادات.. الخ. بل الذي ساد شعوبنا الإسلامية – في هذا العصر– حالة الانكفاء الذاتي، وانعدام روح المؤسسية، وفقدان الانضباط، وضعف الآليات والأنظمة في معظم المفاصل الحياتية، إضافة إلى تشتّت وتشرذم طاقات إبداعية عديدة في العالم، نتيجة هجرة العقول العلمية، وبقاء أصحاب الشهادات العليا في دول المهجر، لا سيما الدول الأوروبية.

- **تحديات على الصعيد الخارجي:**

أما التحديات الخارجية – وأقصد خارج نطاق الصحوة بالدرجة الأولى–، فهي كذلك عديدة ومتنوعة، أهمها هي:

أولاً/ شمولية الأنظمة العربية والإسلامية، وتضييقها المتعمد على الحركات الإسلامية، والعداء السافر لمعظمها مع التيارات الإسلامية، لاسيما التيار الوسطي الفعال والمؤثر في الساحات والميادين. ولقد أثبت تعامل العلمانيين المتطرفين في دول عربية عديدة، مدى تعنّت وشراسة تعاملهم مع الإسلاميين، حتى بعد مهب التغيير الذي سمي بالربيع العربي، حيث لا يقرّون الحضور للإسلاميين في ميادين الحكم والإدارة، حتى وإن أتوا عن طريق الشرعية الانتخابية والطرق القانونية المتبعة.

ثانياً/ تحدي معظم التيارات العلمانية، التي أثرت على الشعوب المسلمة، ومعاداة المتطرفين فيها للمشاريع الإسلامية، بل انخراط العديد منها في مسالك المتورطين مع الأنظمة القمعية في التآمر على الإسلاميين، لا سيما في الدول التي لم تتنعّم بنسيم ربيع التغيير السياسي.

ثالثاً/ تحدي القوى الاستكبارية العالمية المتجبرة، والمشاريع الصهيونية والصليبية المعادية، والقرارات الدولية المجحفة بحق الأمة الإسلامية.

رابعاً/ تحدّي ثورة تكنولوجيا الفضائيات، وشبكة العنكبوت العالمية الغازية، وموجة

وسائل الإعلام والاتصالات العارمة، وتأثيرها الملموس على الرأي العام. وضعف التحدي الإسلامي لمواجهتها، إلى درجة انعدام الخطط والسبل الكفيلة بالمواجهة، إن لم أقل انعدام رؤية إسلامية متكاملة ومتوازنة لمواجهتها، وإيجاد حلول وبدائل.

مقترحات حلول

بما أن أمتنا الإسلامية أمة واحدة، مأمورة بالوحدة، ومنهية عن التفرّق والاختلاف، وفق قوله تعالى:﴿إِنَّ هذهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا ﴾ آل عمران/ ١٠٥، وبما أنها تعتبر (خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ). وبما أنها تمتلك من الإمكانيات والنعم والطاقات الكامنة، ما لا يمتكله الآخرون، وبما أن المسلمين مأمورون أن لا ييأسوا من روح الله، لا بد من الحديث عن الحلول، بل السعي الحثيث لإيجادها. ولهذا فإنني، في هذا السياق، سأستعرض في نقاط محدّدة أهم الخطوات اللازمة – في نظري– لمواجهة تلكم التحديات، على صعيديها الداخلي والخارجي:

أولاً/ لا بد من السعي الجماعي لتوحيد رؤية متقاربة حول جميع القضايا، بعيداً عن التزمت الفقهي، والتعصب الحزبي، والنزعة الفئوية والطائفية. ومحاولة الاجتماع على المشتركات والثوابت، وترك الخلافيات جانبا.

ولا بد لتحقيق ذلك من خلق منافسة إيجابية لتقديم أحسن المشاريع العملية، وأفضل الخيارات والسيناريوهات المطروحة، لخدمة ما أشرنا إليه.

ثانياً/ إحياء روح التحديث والتجديد والاجتهاد العصري، والتفكير الجاد في وضع برامج تطويرية في جميع مجالات: مناهج التعليم، والمناهج التربوية، والمشاريع السياسية، والخطابات الدعوية، والدراسات الشرعية، وتدوين الفقه المعاصر، وغير ذلك.

ثالثاً/ السعي الحثيث لترشيد الصحوة الإسلامية، سواء على مستوى أفرادها وأتباعها، أو على مستوى رموزها وقياداتها – فكريا وتربويا – أو على مستوى برامجها ومشاريعها وأنظمتها ولوائحها.

رابعاً/ التمهيد لإيجاد آلية عالمية، لغرض التنسيق بين التيارات والقوى الإسلامية، كخطوة لاستحداث مرجعية تشاورية مستقبلا.

خامساً/ مراجعة جدية لأساليب الدعوة إلى الإسلام، وأنماط الخطاب الدعوي، الذي يحتاج إلى تطوير يناسب المرحلة، امتثالا لقوله تعالى:﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ وقوله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾.

سادساً/ العودة لإعطاء المصداقية العلمية لسمات وخصائص الواقعية، والربانية،

والتيسير، والتبشير، والتسامح، المعروفة بها شريعة الإسلام. وتحريم جميع أساليب التنفير، والتعسير، والتشديد، والغلوّ، والتطرّف، والتعنّت، والتعنيت، والعنصرية، والطائفية، والفئوية..

سابعاً/ محاولة لمّ الطاقات الإسلامية، باختزال المؤسسات الفكرية والفقهية (العالمية) في آليات جامعة، على غرار أجنحة (الأمم المتحدة)، ومؤسسات (المؤتمر الإسلامي)، أو (الجامعة العربية)، مثل الجهود البدائية المشكورة في (الاتحاد العالمي للمنظمات الطلابية)، وغيرها، إسنادا لجسور التلاقي والتفاهم بين القوى والاتجاهات. وسيترتب على هذا الأمر توفير كثير من الإمكانيات، وجمع الشمل، وتقريب وجهات النظر.

ثامنا/ وعلى مستوى الشعوب والحكومات، لا بد من القيام ببعض الأمور، منها:

١ــ العمل على توعية الشعوب، كي يتحول أبناؤها من مستهلكين داعمين لمنتجات الغرب، إلى منتجين ومعتمدين على الإنتاج الوطني والصناعات المحلية، رغم ضآلتها وقلة جودتها. وهذا يقتضي أن يواكبه دعم المشاريع الزراعية والصناعية المحلية، حتى وإن كانت بدائية.

٢ــ فضح الجوانب السلبية للعولمة الفكرية والثقافية والاقتصادية، من خلال وسائل الإعلام والنشر، والخطب والمواعظ.

٣ــ التأكيد – بجنب ذلك –على ضرورة حفظ الهوية الدينية والخلقية والوطنية والقومية، وإبراز الجوانب المشرقة لتاريخ الحضارة الإسلامية، وشعوبها، وإنجازاتها.

٤ــ دعم مؤسسات الإعلام والشبيبة والطلاب والمرأة والعلماء والدعاة والساسة والبرلمانيين، وإتاحة الفرص أمامهم، لقيام كل منهم بدوره في أداء الواجبات المذكورة أعلاه.

٥ــ وعلى الساسة والمؤسسات والهيئات التشريعية، العمل الدؤوب لتغيير الدساتير التقليدية، وتعديل القوانين والتعاليم المستلهمة منها، وفق معطيات العصر، ومتطلبات المرحلة. وهذا ما تؤكده ثوابت الدين الإسلامي، ومقاصد تشريعه، ومرونة أحكامه.

هذا ما أسعفت به إخواني في هذه العجالة، في مجال تحديد أهم (التحديات) التي تواجه الصحوة الإسلامية المتنامية، مصطحبة بعرض ما رأيته (مقترحات حلول)، وإن شئتم فاجعلوا من مثل هذا المقال مفتاحا لفتح باب مناقشة الموضوع بإسهاب أكثر. ولقد وددت بذلك أن أخلق لدى القرّاء الكرام شيئا من العصف الذهني، عسى أن يجرّنا للحديث عن الموضوع بجديّة أكثر، والله من وراء القصد، وهو هادي السبيل❐

داعش والتحالف الدولي.. خيارات المواجهة



سرهد أحمد

✍ يصعد التحالف الدولي، بقيادة (الولايات المتحدة الأمريكية)، مواجهته ضد تنظيم (الدولة الإسلامية/ داعش) في (العراق) و(سوريا)، وهذا ما تدل عليه المعطيات الميدانية، مسبوقة بتصريحات القادة العسكريين.

فتكثيف التحالف الدولي لغاراته الجوية، على مواقع (داعش)، واستهدافه لقيادات التنظيم المتطرف، يقابله لجوء الأخير إلى رفع وتيرة هجماته على مناطق عدة، محاذية لتمركزاته في (العراق) و(سوريا). وهو ما بدا جلياً في تسخين جبهة المواجهة ضد قوات البيشمركة في قضائي الـ(دبس) و(الحويجة) بـ(كركوك)، وناحيتي (قره تبه) و(كوله جو)، في منطقة (كرميان)، والهجوم المضاد على (ربيعة) بـ(الموصل) – على اعتبار أن الكورد جزء من التحالف الدولي –.. ومن جانب آخر، تصعيد هجماته ضد القوات العراقية في غرب البلاد، وشمالها، رغم تقهقره في مدينة (بيجي) النفطية. وفي (سوريا) الدفع بـ(جبهة النصرة)، الموالية له، إلى حصار مدينة (عفرين) الكوردية. ناهيك عن إظهاره تماسكاً في أحياء بـ(كوباني)، مع ما يقع في صفوفه من قتلى، وصل عددهم منذ العدوان على المدينة، في السادس عشر من شهر أيلول الماضي، ولغاية الخامس عشر من شهر تشرين الثاني المنصرم، إلى ٧١٢ قتيلاً – بحسب توثيق المرصد السوري لحقوق



الانسان – إثر ضربات وجهتها له – ولا تزال – الوحدات الكوردية، ولاحقاً دخول البيشمركة على خط المواجهة هناك.

تحرك (داعش) على أكثر من محور في آن واحد، يكشف عن رؤية عسكرية لقيادة التنظيم، مفادها، المضي قدماً، وأن الضربات الجوية لن تعيق تغلغله في أي منطقة متى شاء. كما يكشف عن امتلاكه جيشاً جراراً، أكثر عدداً من المتوقع استخبارياً، وهو ما أكده رئيس ديوان رئاسة إقليم كوردستان (فؤاد حسين)، الذي قال إن تنظيم (داعش) جنّد جيشاً مكوناً من مئات الآلاف من الجنود الأقوياء، وهو ما يعد أكثر بكثير من التقديرات السابقة، التي أقرتها وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية.

وقال (فؤاد حسين) لـ (الاندبندنت): إن قدرة التنظيم على مواجهة العديد من الجبهات المتفرقة، على نطاق واسع، في كل من (العراق) و(سوريا)، يظهر في ذات الوقت أن أعداد المسلحين يبلغ على الأقل ٢٥٠ ألف مقاتل، أي ما يعادل سبعة أو ثمانية أضعاف تقديرات وكالة المخابرات المركزية، التي بلغت تقديراتها لعددهم ٣١،٥ ألف مقاتل.

وإلى جانب التكتيكات الميدانية، يبدو أن (داعش) يتبنى استراتيجية (الردع)، والتي تقضي بإبداء القدرة على امتصاص الضربات الاستباقية الموجهة من العدو، وفي ذات الوقت الرد بالمثل – هنا مع الفارق – فالرد المضاد لـ(داعش) يستهدف سايكولوجية الخصم. وهذا بدا واضحاً في قيامه بعمليات ذبح لرهائن على الهواء، آخرهم عامل الإغاثة (بيتر كاسيغ)، الذي كان قد خطف في سوريا عام ٢٠١٣. فـ(داعش) غير معدوم الخيارات والبدائل – رغم محدوديتها – في مواجهة التحالف الدولي، وهو ما استقرأه وأقر به السيناتور (جون ماكين)، عضو مجلس الشيوخ الأمريكي، عن (الحزب الجمهوري) بالقول: "داعش ينتصر.. على الأقل بنظر المتطرفين الأصغر سناً في الشرق الأوسط".

لكن اختيارات هذا التنظيم بين البدائل مختلة، وهذا طبيعي من منظور علم السياسة، لكونه تنظيماً لا دولة ترتكز على مفاصل متعددة، وإن سمى نفسه دولة.

أما التحالف الدولي، فخياراته كثيرة، وبدائله وفيرة، ولا عجب فهو مجموعة دول عظمى، تجد في وجود (داعش) خطراً يهدد

أمنها القومي، حتى وهو متمترس في (الشرق الأوسط)، باعتبار هذا الجزء من جغرافية العالم منطقته (الجيوسياسية). وهذا يتضح من طلب (باراك أوباما) من فريق الأمن القومي تقديم مراجعة جديدة للاستراتيجية الأمريكية حيال (سوريا)، على ضوء واقع جديد يؤشر إلى أن هزيمة تنظيم (داعش) لن تكون ممكنة دون حل سياسي يقتضي رحيل رئيس النظام السوري (بشار الأسد) عن السلطة، وفق شبكة CNN.

فالخطوة، وإن اعتبرت تراجعاً عن الاتجاهات السابقة للإدارة الأمريكية، التي كانت تعتقد بإمكانية التركيز على ضرب التنظيم في (العراق)، ومن ثم استهداف مسلحيه في (سوريا)، دون ضرورة التركيز على رحيل (الأسد) عن السلطة، فهي تعني في ذات الوقت خياراً جديداً على طريق القضاء على (داعش).

وحسب الشبكة المشار إليها، فإن الإدارة الأمريكية باتت على قناعة بأن التركيز على (العراق) بمفرده لن ينفع، خاصة وأن (الجيش السوري الحر)، الذي تراهن عليه (واشنطن) لقتال (داعش)، يخوض مواجهات أيضاً مع قوات النظام، و(جبهة النصرة). ومن بين الخيارات المطروحة لمساعدة المعارضة السورية، إمكانية فرض منطقة حظر جوي، عند الحدود التركية، وتسريع عمليات التدريب.

وطالما بقيت الحرب مفتوحة، فإن كلا الطرفين سيلجأ إلى خيارات المواجهة لحسم المعركة لصالحهما، على الأقل بالنسبة لـ(داعش)، لمحدودية بدائله، حيث سيسعى لكسب المزيد من الوقت كاستراتيجية مرتقبة، يستطيع من خلالها زيادة عدد مجنديه، وتكريس واقع مغاير على الأرض التي يسيطر عليها حالياً. وربما يخفي التنظيم مفاجآت سيكشف عنها حسب المعطيات الميدانية، خاصة مع زيادة الضربات الجوية، وتضييق الخناق عليه برياً، تحديداً في (الموصل) و(الأنبار) و(صلاح الدين)، وهو الاحتمال الأقرب، بناء على مؤشرات مستقاة من تأكيدات وزير الدفاع الأمريكي (تشاك هيغل)، عقب حضوره تدريبا لقوات الجيش الأمريكي في صحراء (موجافي) بولاية (كاليفورنيا)، قال فيها إن بلاده تسرع تدريب القوات العراقية.

العام الجديد الذي لم يتبق على مجيئه سوى أيام قلائل، سيشهد تطورات دراماتيكية متسارعة على مسار الحرب بين (داعش) والتحالف الدولي، ستفضي وفق مؤشرات قوية إلى طرد عناصر التنظيم من العراق – القيادات الأجنبية وأمراء المحاور وعديد المجندين المحليين – ودفعها باتجاه (سوريا)، كخطوة أولية، حيث سيجري إعداد سيناريو مختلف بعض الشيء لدحرها هناك أيضاً، وإن نسبياً❐

الإسلاموفوبيا من الغرب إلى الشرق



جاسم محمد الشرنخي

✍ ظاهرة الرهاب الإسلامي، أو الخوف المرضي من هذا الدين، في الغرب، لاشكّ أنّ لها جذوراً ممتدة في التاريخ، تضافرت عوامل كثيرة على نشأتها، ومن ثم تقويتها، حتى تشكّلت الصورة النمطية، والحكم المسبق على الإسلام والمسلمين بالإدانة والاتهام عبر العصور، لكنّ هذا التّحامل والكراهية قد ارتفعت وتيرتهما، وتصاعدت حدّتهما، خلال أكثر من عقد من الزمن، إلى درجة أن تحوّل العداء لكلّ ما يمت إلى الإسلام بصلة، من حالات إلى ظاهرة، ومن ثمّ إلى "أمر مشروع"، على حدّ قول (مسعود شاردجره)، رئيس لجنة حقوق الإنسان الإسلامية في (المملكة المتحدة)، وصار الحال في (بريطانيا) – على سبيل المثال – أن لا تخلو الصحف اليومية من خبرين أو ثلاثة من حالات الاعتداء على المسلمين، مثل خلع الحجاب، أو البصق في الوجه..

وإذا كانت تلك الثقافة العدائية في الغرب تجاه ديننا، مصيبة كبيرةً، يتطلّب الأمر معها أن يقوم كل مخلص لهذا الدين، بما في وسعه، من أجل تغيير تلك الصورة الكريهة، وتقديم الإسلام في حقيقته البهية. فإن الكارثة الحقيقية أن تتعرض صورة الإسلام، في نفوس كثير من المنتسبين إليه، أنفسهم، إلى هزّة شديدة، وأن ينتقل مرض الرهاب الإسلامي إلى العالم الإسلامي نفسه، فيتزعزع

الإيمـان في قلـوب الـبعض بعظمـة الإسـلام، كدين جاء لإسـعاد البشـرية، ورحمـة مهـداة للعالمين. فباتوا يشككون في ثوابت الإسـلام، ويـثيرون الشـبهات المـردودة، الـتي أثارهـا الأعداء الكافرون منذ عهد بعيد، وظنّ الناس أنّ الزمن قـد تجاوزهـا إلى غـير رجعـة، فـإذا بـالجميع قـد فوجئـوا بعـودة إثـارة زوبعـة الشـبهات –وبقـوة– في الفضـاء الثقـافي، في بعـض البلـدان الإسـلامية، لا سـيما في هـذا الجزء الذي نعيشـه مـن العـالم، الـذي ابتلـي بـ(داعش)، ومن قبلها (القاعدة).

وأكـاد أجـزم أنّ بصـعود (داعـش)، وتمدّده، انتقـل التحامـل والعـداء للمشـروع الإسـلامي، وللتيـار الإسـلامي المتنـامي، إلى أخطر مرحلة، وهي العـداء للإسـلام جهـاراً نهاراً، والهجوم في عقـر (دار الإسـلام) علـى أقدس مقدسـات الإسـلام والمسـلمين، علـى الرسـول الكـريم (محمـد) (صـلى الله عليـه وسـلم)، وعلـى نصـوص الإسـلام القطعيـة الثبوت، فأصبحنا نسمع من يرفع بعقيرته بأنّ ما يرتكبه (داعش) من الفظائع المروّعـة: مـن قطع للرؤوس، وعرض مشـاهده السّـادية في مقـاطع الفيـديو، واسـترقاق للأسـرى، بـل وقتلهم بصورة جماعية، وسبـي للنساء، "إنّهـا – على حدّ قولهم – هو الإسـلام في حقيقتـه الجليّة، التي يحاول بعض المسـلمين، جاهـدين دون جدوى، من إخفاء الوجه الحقيقـي لهـذا الدين". وصـرنا نـرى مـن يتجـرّأ فـيطعن في كتاب الله تعالى، بأنّه يزخـر بنصـوص كـثيرة تحرّض على العنـف والقتـل والإرهـاب، وأنّ الإسلام ما كان أن ينتشر إلّـا بحـدّ السـيف، وأنّ رسول الله (صلى الله عليـه وسـلمّ) هـوّ الذي شـرّع قتـل الأسـرى، بـل إنّ القـرآن الكريم – حسب زعمهم الباطل – قد عاتب النبـيّ لعـدم قيامـه بمجـزرة في حـقّ أسـرى (معركة بدر)، ويسـتدلون بتلـك الآيـة الـتي تصدّرت بعبارة {ما كـان}، والـتي ارتبطـت بواقع تاريخي مضى، لا بحكم شرعي مفروضٍ من قبل الشارع الحكيم عزّ وجلّ. قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. فتلـك أهـم الشـبهات الـتي يثيرهـا هـذه الأيـام صـنّاع الإسلاموفوبيا، أولئك الذين وجدوا فرصتهم سـانحة للصـيد في المـاء العكـر، وأظهـروا – بطعـنهم المتكـرر المتواصـل علـى صـفحات الأنترنــت، وغــيره – أنّهــم رأوا موبقــات (داعش) هدايا قدّمت إليهم علـى طبـق مـن ذهب، وكأنّهم كانوا ينتظرون مثل ذلك كي تتقيّأ أفواههم قيحاً نتناً، أثبتوا به للعـالم كلّـه، أنّهم أبعد ما يكونون عن الإيمان، ولا يحملون من الإسلام سوى أسمائهم، الـتي تظهـر أنّهـم ولدوا من آباء مسلمين ليس إلّا. ولست أرى داعياً للتفصيل في الـرد علـى أولئـك النفـر،



الذين نقلوا، بأمانة وحرفية شديدة، شبهات ألدّ أعداء الإسلام من المستشرقين، وباتوا يعيدون نشرها من جديد، بفضل (داعش)، التي أخشى أن تكون العذاب، أو العقاب الداخلي، المسلّط علينا، مصداقاً لقول الرسول الأعظم (عليه أفضل الصلاة والسلام)، فيما يرويه عن ربّه سبحانه وتعالى: "إِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ..." ، فيكون (داعش) سبباً قوياً ومباشراً في أن تؤجج نار الحرب المسلّطة على الإسلام والمسلمين.

لكن قد يستلزم الأمر الرد على شبهات البعض، على عجالةٍ، بشأن موضوع انتشار الإسلام بقوة السيف، الذي يكّذبه واقع الشعوب المسلمة، التي وجدت فرصاً متكررة للعودة إلى دين أجدادها، في فترات غياب سلطة الإسلام عن الحكم لقرون، وكما هو الحال اليوم! كما تكذّبه نصوص واضحة وصريحة في رفض فرض العقيدة، كقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، تلك الآية المحكمة التي لا تقبل التأويل، ولا تحتمل غير معنى واحدٍ، وهو حرية العقيدة، بعد التحرر من ظلم وعبودية الطواغيت، التي تفتن الناس عن دينهم، وبعد ذلك فالأمر كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.

وبخصوص الاسترقاق والعبودية، لم يأت نص، في مصدري الشريعة الرئيسين، يشرّع للعبودية، وإنّما جاء الإسلام فأغلق كلّ سبيل من السبل الكثيرة، التي كانت مشرّعة لاستعباد من ولدتهم أمّهاتهم أحراراً، وحرّمها جميعاً، سوى سبيل واحدٍ، ألا وهو الحرب المشروعة، ولم يبقه سالكاً مفتوحاً، بل

ضيّقه إلى أبعد الحدود. فأسرى الحرب المشروعة بين حكمين رئيسين، هما: إمّا المنّ بإطلاق سراحهم، أو الفداء، تطبيقاً لأمر الله عزّ وجل: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ، حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾. هذا هو الأصل الشرعي، كما كان هناك حكمٌ استثنائيٌّ، وهو الاسترقاق، الذي كان بمثابة قانون سائرٍ في عصر صدر الإسلام، وما تلته من عصورٍ، فكان ذلك من مبدأ التعامل بالمثل، وأمّا وقد حرّم استرقاق الأسرى في العصر الحديث عالمياً، فإنّ غالبية الفقهاء المعتبرين على تحريم استرقاق من يقع أسيراً بأيدي المسلمين في حرب مشروعة، مادام غير المسلمين يمتنعون عن الاسترقاق، فلا يجوز لنا أن نتجاوز ردّ الاعتداء بأشدّ من مثله. ثمّ إن الإسلام قد فتح أبواباً كثيرة، شجّع بذلك على تحرير العبيد، وجعل كفّارة أخطاء وذنوب كثيرة عتق الرقاب، وفكّها.

وبخصوص حالات نادرة جداً، حول قتل بعض من وقع في أيدي المسلمين، في عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلّم)، فوقائع السيرة النبوية والتاريخ يشهدان أنّ ذلك لم يكن بسبب الأسر، وإنّما كان بسبب الغدر والخيانة العظمى المتكررة، كما في قتل رجال (بني قريظة)، أو بسبب جرائم حرب ارتكبوها، فقُتلَ أفرادٌ كمجرمي حرب، مثل: (عقبة بن أبي معيط)، و(النضر بن الحارث)، اللذان قتلا بأمر النبي يوم (بدر).

فمشهد الخيانة والغدر تلك، وصورة الحقد الأسود، التي دفعت أصحابها أن يلقوا حتفهم ومصيرهم المشؤوم، يتغافل عنها صنّاع الإسلاموفوبيا، في الدّاخل والخارج، عمداً، ويحاولون اجتزاء جزء من الصورة، واستغلالها، للتحريض على العداء للإسلام، بتشويه صورته الناصعة.

وهكذا، فاليوم إنّ المسؤول – في المقام الأول – عن نشر مرض الإسلاموفوبيا بين المسلمين أنفسهم، وحمل وزر زعزعة الإيمان، وفقدان الثقة بالإسلام، فضلاً عن المشروع الإسلامي الحضاري، هو (داعش)، بما يقترف من إرهاب فظيع، تقشعّر له الأبدان، يرتكبه كلّه تحت راية التوحيد، والتوحيد منه، ومن جرائمهم، براء. وبعد (داعش)، فإنّ تلك الفئة من أصحاب الأفكار المسمومة، والثقافة الموبوءة، والمشحونة بالعداء والحقد الدفين لديننا، الذين بدت البغضاء من أفواههم، وما تخفي صدورهم أكبر، مسؤولون أيضاً عن بثّ جراثيم الإسلاموفوبيا في الداخل. فهل نحن على حذر من هذين الفريقين سواء بسواء، اللذين يكمل أحدهما الآخر، ويخدم بعضهما بعضاً، في حركتيهما الهدّامتين، بغية تصفية الإسلام، واغتيال الإيمان معنوياً؟!❑

لا تكن خيراً منه فتهلَك وتهلِك

فاتن محمد

أيتفق البشر في فطرتهم الخلقية، فالإنسان مجبول على الأخلاق الحسنة، ثم يتفاوتون بعد ذلك في مدى حفاظهم على هذا الأصل الخلقي أو انعدامه، كل بحسب تربيته، ومجتمعه، وغيرها مما يؤثر في شخصية الإنسان. قال تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾، فالأصل في الأخلاق الحسنة فطرة، ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾، أي: ثم يأتي خلال مسيرة الإنسان ما قد يؤثر على صلته بهذه الأخلاق.

ومن هنا نفهم أن الخلق موجود في كل الإنسان: المسلم وغير المسلم .

فإذا كانت الأخلاق موجودة عند المسلم وغيره، فهل هي عند غير المسلم حقيقة أم شكلية؟

الإنسان بدون الدين الأخلاقيات عنده إما أن تكون شكلية، خوفا من العقوبة، أو على مركز، أو على سمعة، أو طمعا بمنزلة أو ... وهناك من الناس الأخلاق عنده حقيقية، فهي عنده مبدأ، سواء قدر الناس هذا الخلق، أم لم يقدروه، وسواء كانت جريرة الالتزام الأخلاقي عليه منفعة أم مضرة.

وقد قال صلى الله عليه وسلم: (الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، فخيارهم في الجاهلية، خيارهم في الإسلام، إذا فقهوا).

فإذا كان الخلق الحسن فطرة في الإنسان، فما علاقة الدين في الأخلاق؟

إن مهمة الدين من الناحية الخلقية هي إعادة ترميم الأخلاق لا بناءها، قال صلى الله عليه وسلم: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق). فلم يقل (صلى الله عليه وسلم) إنه جاء ليؤسس أو ليؤصل للأخلاق، إنما لأتمم، فالأخلاق موجودة، ولكنها تمرض كما تمرض الأجساد، وتحتاج لعلاج، وعلاجها ممكن، فكانت من مهام النبي معالجتها.

وكذلك هناك ميزة للمسلم الملتزم أخلاقيا على غير المسلم، أن المسلم يعامل الله، وغير المسلم يعامل نفسه، والنفس تغش صاحبها، فقد تزين له ما هو غير أخلاقي على أنه خلقي، لمصلحة لها به. وهذا يعطي المتدين ميزات:

- الثبات على الأخلاق، مهما كانت الظروف والتحديات. فغير المتدين قد يصمد لمرحلة معينة، ثم يضعف، لكن الدين يعطي الملتزم به قوة، تأتيه من صلته بربه.
- التمييز: عندما يختلف بين خلقين أيهما الأولى التمسك به في موقف معين، هنا لن يجد الجواب في نفسه، إنما الذي يعطي الجواب الصحيح للإنسان هنا هو الدين .
- القدوة: وهو النبي (صلى الله عليه وسلم)، بل ويعتبر النبي (صلى الله عليه وسلم) أصل للأخلاق الإنسانية للبشرية

جمعاء. فقد قال الله عز وجل في حقه: (إنك لعلى خلق عظيم)، فهو (صلى الله عليه وسلم) مقياس للأخلاق وأنموذجه.

إن العالم اليوم، وليس المسلمون، يفتقد حقيقة الأخلاق. فالعالم اليوم يعاني أزمة أخلاق، فالأخلاق وإن وجدت في مجتمع من المجتمعات، فهي أخلاق شكلية لا حقيقية .

والأخلاق ضرورة اجتماعية لا غنى عنها لمجتمع من المجتمعات، فمتى فقدت الأخلاق التي هي الوسيط الذي لا بد منه لانسجام الإنسان مع أخيه الإنسان، تفكك المجتمع، وتصارع أفراده، و.....ثم أدى بهم إلى الانهيار والدمار.

لكن لن يشعر العالم بهذه الحاجة للأخلاق الإسلامية، إلا بعد أن نستشعر نحن أنفسنا حاجتنا إليها، ونطبقها في سلوكنا، ويروا هم أثرها على الأمة الإسلامي، كمجتمع وأفراد، حينها سيشعر العالم بحاجته للتتلمذ على هذا الدين .

وهنا تكمن أهمية التزامنا بالأخلاق الإسلامية من الناحية الدعوية، فالنبي (صلى الله عليه وسلم) قال: (إنما بعثت لأتمم مكارم مكارم الأخلاق)، فجعل علة بعثته هي الأخلاق. فهل الأخلاق أهم من العقيدة والعبادة؟ بالطبع كلا. ولكن لبيان أهمية الأخلاق في هذا الدين. فهي أبرز ما يراه الناس من الدين، ومن خلالها يحكمون على صحة الدين من عدمه، فالناس لا تعنيهم عقيدة الإنسان أو عبادته، فهي بينه وبين ربه، والذي يخصهم هو أخلاقه، فالمسلمون سفراء الإسلام للبشرية، وأخلاقهم هي أول رسالة يتلقاها العالم منهم عن طبيعة دينهم، أيا كانت مراكزهم، أو وظائفهم، فذلك لا يختص بالدعاة ، كلا بل بأي مسلم طبيب، معلم، مهندس .. لذلك عندما دخلت (أندونيسيا) و(الملايو) و(الفلبين) و(ماليزيا) الإسلام، دخلته عن طريق أخلاق تجار (اليمن) و(حضرموت) المسلمين. فدول بأكملها دخلت الدين من خلال الأخلاق .

وإن ابتعاد المسلمين عن الأخلاق الإسلامية هو أول ما ينفر غيرهم من دينهم، قال تعالى: ﴿ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضو من حولك﴾، وبذلك يحملون إثمهم وإثم من كانوا سبباً في كرهه أو نفوره من الإسلام بسبب سوء أخلاقهم قال تعالى : ﴿ليحملو أوزارهم كاملة يوم القيامة، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾.

ولكن هناك سؤال يطرح نفسه، إن كانت الأخلاق فطرة في الإنسان، وإن كان الدين يولي الأخلاق هذه الأهمية الكبيرة، فلماذا نرى ابتعاد المسلمين عن أخلاقهم؟ ونخص منهم الدعاة أو الملتزمين بالدين المحسوبون عليه، فما السبب؟

سؤال كان كل ما بدأته من كلام طريقا للوصول لهذه النقطة، فما السبب؟ وهل هو موجود فعلا؟

هل هو موجود أو لا؟ هو جواب يستطيع الإجابة عليه كل منا، وبكل سهولة: نعم هو

موجود.

فإن كان موجودا، فما سببه؟

١- اختلال مفهوم التدين عندنا، وجعل العبادة فقط هي معيار التدين،وعدم معرفة أن الأخلاق هي أساس في التدين. سئل النبي عن امرأة تصوم وتصلي، ولكنها تؤذي جيرانها، فقال صلى الله عليه وسلم: (هي في النار).

وهذا الخطأ أثمر خطأ آخر، وهو حكمنا على الآخر بنفس المقياس، وهو العبادة، فنحكم على الإنسان أنه ملتزم أو لا من خلال عبادته فقط، وننسى المقياس الأخلاقي!

والفرق بين النقطة الأولى والثانية، أن الأولى تخص الحكم على الإنسان نفسه، أي حكمه على نفسه، والثانية تخص المجتمع، أي حكمنا على الآخرين..

٢- غياب معنى ربط العبادات بالأخلاق، فعلامة اتقان العبادة، هي ظهور ثمرتها في أخلاقنا. قال تعالى: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾، وأن الذي لا تنعكس عبادته على أخلاقه، فعبادته فيها خطأ. قال صلى الله عليه وسلم: (من لم يحمله صيامه على ترك قول الزور والعمل به، فلا حاجة لله في أن يدع صلاته وصيامه).

٣- اختلال مفهوم الحب والبغض في الدين، والتعامل الجاف مع غير الملتزمين على أنه لا يجوز محبتهم، بل ينبغي إظهار البغض لهم، وهو خطأ، لأن غير الملتزم كالمريض الذي يحتاج للعلاج، فلا تكون النصيحة بالبغض، لأنك إن أبغضته تجعله يبغض دينك الذي أبغضته بسببه، وهكذا تكون صادا عن الدين، لا داعيا له. بل إن الاحترام والتقدير سبب في محبة الإنسان، وبالتالي محبة دينه، والدخول فيه. قال صلى الله عليه وسلم للصحابة: (ادعوا الناس وأنتم صامتون)، قالوا: وكيف؟ قال: (بأخلاقكم).

٤- انعكاس معنى المنة في الدين. قال تعالى: ﴿يمنون عليك أن أسلموا، قل لا تمنوا علي إسلامكم، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾، فحين يشعر الإنسان بمنة الله عليه في هدايته، ينعكس ذلك على سلوكه مع عباد الله.

٥- العلم الإبليسي: ازدياد كبر الإنسان كلما ارتقى في مراتب العلم، وهذا هو العلم الإبليسي: ﴿أنا خير منه﴾، وهو ما أهلك إبليس. أما العلم الرباني، فهو ما يظهر في أخلاق صاحبه، بأن يزيد تواضعه، وحلمه، وتتحسن أخلاقه، كلما ازداد علماً، فثمرة العلم تظهر في سكون العالِم. فالفرق بين العلم الرباني والعلم الإبليسي، أن العلم الرباني ممزوج بخشية الله، قال تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده، العلماء﴾، وقيل: (العلم خشية كله، يعرف بذلكم أهله، وليس بالأقوال، وكثرة الجدال).

فلا تَكن صاحب َعلم إبليسي، فتنفر الناس من دينك، فتَهلَك، وتُهلِك. واعلم أنه: أينما كمنت الأخلاق الراقية، كمن الدين، وأينما كمنت الأخلاق الراقية، كمن العلم، وأينما اختفت الأخلاق، فلا دين ولا علم ❑

لماذا قبّل الرسول (الحجر الأسود)؟



الدكتور سعد سعيد الديوه‌جي

✍ لن نخوض في هذا المجال في تاريخ (الحجر الأسود)، الموجود في أحد أركان الكعبة المشرفة، أو عن مصدره وأصله، فالكتب ومواقع الانترنت مملوءة بهذه المعلومات، وما نريد أن ندخل فيه، بدون لف ودوران، هو أنه ليس كل عملية تقبيل هي من قبيل التقديس، وهذا ما ينطبق على (الحجر الأسود)، فهذا وهم كبير، فالتقبيل يمارس لإظهار المودة والقربى لشخص ما، كأن يقبل الشخص أطفاله وأهله وإخوته، وعند لقاء الأعزة، ويمارس كذلك في الشرق لإبداء الاحترام، وخصوصاً لكبار السن، أو الوالدين، وذلك بتقبيل الأيادي.

ولقد اتخذ الغلاة والباطنية من تقبيل (الحجر الأسود)، حجة لاتهام المسلمين بالشرك والوثنية، كما يتهمهم البعض – من الغلاة الظاهرية – بأن إظهار القباب، أو العلامات المميزة، فوق القبور، على أنها شرك ومجافاة للتوحيد، رغم عدم تعظيم هذه القبور، بممارسات وشعائر معينة، أو اتخاذها كمزارات، ولكن كمعالم فقط لهذه الشخصيات، التي قدمت خدمات جليلة للإسلام والمسلمين، وتركت بصمات لا تمحى في الشارع الإسلامي، كضريح صلاح الدين الأيوبي، وضريح محمد الفاتح في استانبول ... إلخ.

والثابت قطعاً في الأدبيات الإسلامية أن سيدنا إبراهيم (عليه السلام)، هو الذي بنى

الكعبة، ووضع (الحجر الأسود) فيها: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ البقرة: ١٢٧.

ولقد تعرض (الحجر الأسود) لأقسى هجمة إرهابية همجية من قبل (القرامطة) عام ٣١٧هـ/٩٢٩م، وهم باطنية إسماعيلية، وكانوا يرتبطون بالفاطميين في مصر عقائدياً، حيث سرقوا (الحجر الأسود)، وكسروه إلى عدة أجزاء، ونقلوه إلى عاصمتهم (هجر)، على ساحل (البحرين)، وبقي هناك لمدة ٢٢ عاماً، بعد أن قتلوا ألوف الحجيج، وفعلوا كل المخازي داخل المسجد الحرام الشريف، مما يندى له جبين الإنسانية. وكما يقول المؤرخ (دي خويه) بأن ما فعلوه قد جعل المسلمين يتحدثون عن الجريمة بالتياع وحزن لقرون عديدة، وكان ذلك في (يوم التروية)، مما يعني الكثير.

خرجوا بـ(الحجر الأسود) وهم يستهزئون بحرمة المسجد الحرام، وينشد كبيرهم:

أين الطير الأبابيل؟

أين الحجارة من سجيل؟

وتكررت الاعتداءات من قبل الباطنية، ولكن بحوادث أقل خطورة، وذلك في أعوام (٤١٣هـ/١٠٢٢م) و(٩٩٠هـ/١٥٨٢م) و(١٣١٥هـ/١٨٩٧م)، وذلك بمحاولة ضربه بمعول، وكسر أجزاء منه، بحجة أن المسلمين يعبدونه، وفي كل هذه المرات كان المعتدون من الباطنية. وهذا تدليس واضح لتجريد الإسلام من تراثه الأخلاقي والاجتماعي، وصبه في قوالب جامدة لا روح فيها.

والحقيقة أنه ليس من المهم أين نزل، ولا من أين؟ ولن نبحث في أسراره، لأنه في الإسلام لا توجد أسرار دينية، كما في المسيحية، وغيرها من الأديان، كما لا يوجد فيه تحجرات عقلية، فمرتبة العقل من أعلى المراتب في القرآن الكريم، ولذلك فإن قدسيته ليست ناتجة من أن الله جعله مقدساً، كالأرض المقدسة لبني إسرائيل، فالله تعالى لا يجعل الأحجار، ولا الأشجار، ولا غير ذلك، مقدسة، لأن ذلك ينافي العقل والتفكر، وهما من أهم أسس التوحيد.

ولذلك، فإن بعض الأحاديث المنسوبة للرسول (صلى الله عليه وسلم) في هذا المجال، محط تساؤل واستفهام، مثل: "إن مسح (الحجر الأسود)، و(الركن اليماني)، يحطان الخطايا حطاً" {رواه أحمد}، و"والله ليبعثنه الله يوم القيامة، له عينان يبصر بهما، ولساناً ينطق به، يشهد على أن من استلمه بحق" {رواه الترمذي}، ذلك بأن هذه الأحاديث المنسوبة تتعارض مع قول عمر (رضي الله عنه): "والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ماقبلتك"، وعلى حد قول الحافظ (ابن

حجر)، عن (الطبري)، بأن (عمر) (رضي الله عنه) قال ذلك، لأن الناس كانوا حديثي عهد بعبادة الأصنام، فخشي أن يظن الجهال بأن استلام الحجر هو تعظيم بعض الأحجار، كما كانت العرب تفعل في الجاهلية، فأراد عمر أن يعلم الناس أن استلامه اتباع لفعل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لا غير، لا لأن الحجر يضر وينفع، كما كانت تعتقد العرب بالأوثان.. لماذا إذن قبّل الرسول (صلى الله عليه وسلم) هذا الحجر؟

فكما رأينا بأن (إبراهيم) و(إسماعيل) (عليهما السلام)، وهما جدا رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وهو من صلبهما، قد لمسا هذا الحجر بيديهما الكريمتين، فأراد الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يعيد ذكرى بناء أول بيت وضع للناس، ورمزه الأكبر (الحجر الأسود)، موضع احترام ومودة.

كذلك، فإن (الحجر الأسود) يمثل وحدة المسلمين، بالسلام عليه وتقبيله، كما مثل ذلك في جاهليتهم، ففي الرواية المشهورة والصحيحة، والتي مفادها بأن قريشاً عندما أرادت تجديد بناء الكعبة، وحصل الخلاف: أيهم يكون له فخر وضع (الحجر الأسود) في مكانه، وكادت الحرب أن تقع بينهم، فحكموا أول داخل للحرم المكي الشريف، وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وهو في الخامسة والثلاثين من عمره، أول الداخلين، فقالوا: هذا الأمين رضيناه حكماً، فأمر برداء، حمله المجتمعون من كل طرف، ثم وضع الحجر في وسطه، ورفعوه إلى مكانه الثابت، ووضعوه جميعاً، والرسول (صلى الله عليه وسلم) معهم.

فهذه الحادثة تدل – بدون أدنى شك – أن (الحجر الأسود) صار موضع حكمة واتفاق أيضاً، بدل أن يكون موضع جدل واختلاف.

إن معظم الروايات التي تدور حول (الحجر الأسود)، تجنح إلى الإفراط في كونه يتكلم ويسمع، وأنه قد حكم بين المتخاصمين في بعض المسائل، وهي كلها أساطير وخرافات تم حشر (الحجر الأسود) فيها حشراً.

وعليه، فلو لم يكن قول عمر (رضي الله عنه) ثابتاً، بأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد قبّله، دون أن يقدسه، لفعل الغلاة من كل الطوائف أشنع الأفاعيل به. وما كان تقبيل الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلا احتراماً ومودة، وإعادة لذكرى لا تتعارض مطلقاً مع قواعد الشرع والقرآن، الذي لم يأمرنا بالجمود الفكري والعقلي في أمور الدنيا، وهو أمر دنيوي بحت، مارسه الرسول (صلى الله عليه وسلم) كمسألة شخصية، من حق المؤمن أن يقلده بها، ولا غير❑

البـرازيـل أنموذج الدولة الوطنية المتطلعة للنهوض!



هفال عارف برواري

✍ بعيداً عن الأحداث الدامية في الشرق الأوسط، وقريباً من الدول الطامحة في التقدم والنهوض، والمثال (البرازيل) التي تمتلك شعباً ذا أصول متباينة، وأعراق مختلفة، مع ذلك استطاعت أن تكوّن دولة وطنية قوية، استطاعت الاستفادة من كل ما تملكه من متناقضات بيئية وديموغرافية، تحت مظلة الوحدة الوطنية، واستطاعت أن تتقدّم بعد أن كانت تئنُّ من الفقر والظلم السياسي، لكن ما دام هناك وطنيّون يحملون همّ الوطن بجد وشعب يحلم بوطن متقدم فلا بد لها النهوض ولو بعد حين وهاكم قصة نهوض المارد البرازيلي..!!

من المهم دراسة متأنية لتجربة هذه الدولة ونهضتها الاقتصادية العملاقة التي وصلت إلى الإعلان رسمياً عنها عام (٢٠١١) أنها سادس أكبر دولة نمواً في العالم قاطبة "متقدمة" بذلك على بريطانيا؟ وكيف استطاعت بسياساتها الجبارة بقيادة (لولا سيلفا) الذي قال عنه أوباما: "(لولا سيلفا) هو السياسي الأكثر شعبية على وجه الأرض"!! أن ينقل البرازيل من هوة الإفلاس إلى قمّة التقدم الاقتصادي من خلال ثماني سنوات فقط (٢٠٠٣-٢٠١٠). وكيف استطاعت تلك السياسات التأثير في

حياة ملايين البرازيليين ونقلهم من مصاف الطبقات الفقيرة إلى الطبقة الوسطى.

مقدمة:

البرازيل البلد الذي يعتبر أكبر دولة في كل من أمريكا الجنوبية ومنطقة أمريكا اللاتينية. وخامس أكبر دولة في العالم، سواء من حيث المساحة الجغرافية أو عدد السكان وهي تعتبر بلد المتناقضات تجمعت فيه ناطحات السحاب مع عشش الصفيح، ومناخياً توصف بأنها أكبر مستودع للتنوع الحيوي في العالم، حيث تتواجد جميع الأنظمة البيئية. وديموغرافياً يعيش على هذه الأرض شعب يتألّف من أعراق وأصول متباينة يصل العدد السكاني الى ما يقارب الـ ٢٠٠ مليون نسمة موزعين بين ٥٤٪ بيض ٣٩٪ ملونين ينقسمون بدورهم إلى الملاتو (سلالة ناتجة من تزاوج الأفارقة والبيض) والكابوكلوز (سلالة ناتجة من تزاوج الهنود الأصليين والبيض) والكافوكوز (تزاوج الأفارقة والهنود الأصليين) و٦٪ زنوج و١٪ المهاجرين العرب، أمّا عدد السكان الأصليين الذين بقوا على نقائهم ولم يختلطوا بأي من الشعوب القادمة يصل إلى نحو ٢٠٠ ألف نسمة اى ما يعادل ٠.١٪ من إجمالي السكان. إلاّ أنه مجتمع متجانس عرقياً، بمعنى أن هذه الأصول لا يمكن وصفها بأنها طوائف أو أعراق مختلفة أو متصارعة أو يمكن رسم خطوط فاصلة بين تجمعات منفصلة تقوم على أساس اللون، وربما يكون الاستثناء الوحيد هو مجموعة السكان الأصليين الذين يصرّون على الاحتفاظ على نقائهم وخصوصيتهم الثقافية وما زالوا يسكنون في غابات الأمازون، ويعتقدون بخصوصيتهم وضرورة الحفاظ عليها، لأنها كل ما تبقى لهم في معركة الإبادة التي خاضوها ضد الرجل الأبيض طوال ٥٠٠ عام عند وصول البرتغاليين لأراضي البرازيل. أي بمعنى أنها امتلكت مناخاً ديموقراطيّاً قبل أن تبدأ مرحلة الديموقراطية في البرازيل؟ وهي تمتلك قوة سكانية لا يستهان بها مع قدراتها الطبيعية من حيث الأراضي الزراعية الشاسعة والأنهار الكثيرة والثروات الطبيعية مثل النفط والمعادن الوفيرة.

مراحل الأزمات التي واجهتها

في البدايه أود التوضيح أن كل دولة تحكمها النظم العسكرية مصيرها الانهيار والتشرذم والتخلّف ولقد ابتليت البرازيل مثل دول الشرق الأوسط بالحكم العسكري، وكانت بداية الحقبة العسكرية سنة ١٩٣٠ وفي عام ١٩٦٤ استولى الجيش على كل مفاصل الدولة، وبدأت حقبة القمع السياسي، وتراجعت الديموقراطية والحرية وانتشرت الاعتقالات والأزمات الاقتصادية والحروب الأهلية داخل البرازيل، واستمرّ هذا الحال حتى السبعينيات من القرن المنصرم عندما حوَّل العسكر نظام الدولة إلى الرأسمالية وتحالفت مع أمريكا، وقامت بقرض الأموال لدفع مشروعها التنموي إلى الأمام ودافعت عن رجال الأعمال ومصالح الشركات التي كانت قد اخترقتها! ولم تعبأ بالطبقات الفقيرة والمسحوقة مِمّا خلّفت

ديوناً اقتصادية كبيرة وخلّفت عبئاً على الأجيال اللاحقة واستمر مسلسل الأزمات الاقتصادية إلى حقبة الثمانينيات التي عاشت الدولة أزمة الديون ومعدلات التضخّم المرتفعة مع تراجع في معدلات النمو، وفي حقبة التسعينيات اضطر العسكر إلى التراجع من الحياة السياسية التي تمّ انتقالها بشكل تدريجي إلى السلطة المدنية، بعد فشله في الحكم، واختفى العسكرُ عن المشهد السياسي، وفي هذا العقد انتهجت السلطة نظاماً رأسماليّاً قائِماً على السوق الحرة والانفتاح على العالم كله، وانتهاج نهج الخصخصة حسب توصيات صندوق النقد والبنك الدوليين مِمّا أدى إلى تقدّم في مؤشرات الاقتصاد الكلي، وهو ما لم يكن يعني تقدّماً فعلياً، بمعنى أن سياسات الانفتاح الاقتصادي أصابت المنتجين المحليين بخسائر فادحة مِمّا أدّى إلى مزيد من البطالة وتراجع حاد في الإنتاج المحلي ومن ثم تراجع معدلات التصدير، وكذلك ارتفاع معدلات الفقر التي كانت مرتفعة أساساً وعلى هذا فقد أثبتت تجربة التسعينيات في البرازيل والعديد من دول العالم الثالث أن استقرار الاقتصاد الكلي لا يعني بالضرورة نمواً حقيقياً في الاقتصاد والإنتاج ولا يعني تقدماً في مستوى دخل الأفراد وحل المشكلات الاقتصادية مثل البطالة ومستويات الفقر المرتفعة ومشكلات الدين العام والتضخم وغيرها.

محاولات النهوض

بعد صعود (كاردوسو) (١٩٩٥-٢٠٠٢) إلى سدة الحكم في أواسط التسعينيات حاول بكل جهده بإنجاح خطته القائمة على دمج الاقتصاد المحلي بالاقتصاد العالمي مع الاستمرار بسياسة السوق الحرة مع الاستدانة الخارجية، ولكنه دخل في مستنقع الديون حيث بلغت نسبة الديون ٩٠٠٪ وأدّى ذلك إلى خلق عدم الثقة للدول المانحة لها وكذلك المستثمرين وشارفت الدولة على الإفلاس!

صحوة المارد البرازيلي

ولما وصل (لولا سيلفا) (٢٠٠٣ - ٢٠١٠) ذو التوجه اليساري إلى سدة الحكم، بدأ مارد البرازيل ينهض بجهوده الجبارة ومشروعه القائم على:

١- سياسة التقشّف (لسدّ عجز الموازنة مع القضاء على أزمة الثقة بين المستثمرين).

٢- تغيير سياسات الاقراض بخفضها، وتسهيل إقامة مشاريع صغيرة لتوفير فرص العمل، وبالتالي رفع الإنتاج والنمو وبالتالي حل مشكلة الفقر..

٣- التوسُّع في الزراعة في البلد واستخراج النفط والمعادن.

٤- التوسُّع في الصناعة (بشقيها الخفيفة والبسيطة والصناعات المتقدِّمة مثل صناعة السيارات والطائرات، مثل شركة (امبراير Embraer)، والتي تعتبر الآن ثالث أكبر شركة تصنيع طائرات تجارية بعد إيرباص وبوينغ، وأكبر شركة مصدرة في كل البرازيل، وتمثل طائرات شركة «إمبراير» ٣٧٪ من أسطول شركات الطيران الإقليمية في أمريكا

٥- تنشيط السياحة، حيث نجحت في استقطاب ٥ ملايين سائح كل عام.

٦- خطة الإعانات الاجتماعية لحلِّ مشكلة الفقر، ورفع مستوى الدخل مقابل إرسال أطفالهم إلى المدارس التي كانت تحت سطوة شركات المخدرات المافيوية، والتي كانت لها تنسيق مع الحكومات لتهميش التعليم في المناطق النائية لكي ينخرط الشباب في العمل المخدراتي!! وكان مردود هذا المشروع الاجتماعي في أواخر حكمه هو رفع مستوى ما يقارب ٣٣٪ من نسبة السكان.

٧- التوجُّه نحو التكتلات الاقتصادية، حيث أنها خطت خطوات متميزة على مستوى السياسات الاقتصادية الخارجيّة. من خلال منظمة (الميروكسور) وهي بمثابة السوق المشتركة لدول الجنوب، وتشكّلت باعتبارها اتفاقية للتجارة الإقليمية بين كل من البرازيل والأرجنتين وباراكواي وأوروكواي في ١٩٩١ وعضوية غير كاملة لفنزويلا وبوليفيا. وهي تعد اليوم رابع أكبر قوة اقتصادية في العالم، وقد اهتمت سياسة "لولا" الاقتصادية على المستوى الخارجي بالقيام بدور قوي في التأثير على النظام الاقتصادي العالمي من خلال اجتماعات (الميركوسور). ويرصد الباحثون الاقتصاديون تنامي ذلك الكيان الاقتصادي الجنوبي في الوقت الذي يتدهور فيه الاتحاد الأوروبي. وعلى جانب آخر شكلت البرازيل مع روسيا والصين والهند مجموعة (البريكس BRICS) في ٢٠٠٩ انضمت لها جنوب أفريقيا في ٢٠١٠. ويمثل تجمع هذه الدول الخمس أكبر الاقتصاديات على مستوى الدول النامية، حيث يعادل الناتج الإجمالي المحلي لتلك الدول مجتمعة ناتج الولايات المتحدة. وقد قام هذا الكيان على أساس أطروحة مفادها أنه بحلول ٢٠٥٠ ستنافس اقتصاديات تلك الدول اقتصاد أغنى دول العالم. وهي على أي حال تشكّل واحدة من أكبر الأسواق العالمية وأسرع الاقتصاديات نمواً في العالم.

٨- ترجمة النجاح الاقتصادي إلى مكاسب سياسية.

هذا وقد قد حرص "سيلفا" على توثيق العلاقات مع كل الدول، وابتعد عن الصراعات السياسية، وعند نجاحه في الانتخابات ذهب فوراً إلى الولايات المتحدة الأمريكية وقال لـ(بوش): "إن قضيتي ليست العراق ولكن قضيتي هي محاربة الفقر لشعبي، فهناك الملايين من البرازيليين من الفقراء والجوعى، فكيف لي أن اهتم بالعراق". فالرئيس "لولا" امتلك الحكمة التي جعلته لا يتورّط في صراع مع الولايات المتحدة في بداية فترة حكمه، حيث أنه استلم دولةً لديها جملة من المشكلات الاقتصادية وشعباً يعاني من الفقر والجوع. ولكن وفي فترة رئاسته الثانية، وبعد أن تجاوزت البرازيل كبوتها الاقتصادية أبدت انطلاقاً أكثر على مستوى السياسة الخارجية، والتدخل في قضايا كانت من قبل بعيدة عن اهتمام حكام البرازيل أو حتى من اهتماماتهم، مثل الملف النووي الإيراني، ففي

حديث تليفزيوني تحدث فيه عن موقفه من العراق يقول: "لقد كانت قصة العراق أكذوبة ولذلك لا أريد تكرارها مع إيران" وبالفعل قامت الدبلوماسية البرازيلية بدورٍ محوري في الدفاع عن حق إيران لامتلاك تكنولوجيا نووية، كما واجهت بالرفض الشديد لأي محاولة أمريكية لضرب إيران عسكرياً كما عارضت فرض عقوبات على الأخيرة. إذا يبدو أن الرؤية السياسية البرازيلية في عهده عبرت عن الارتباط الحكيم بين القوة الاقتصادية وبين اتخاذ مواقف فعالة في السياسة الخارجية.

وبعد هذا العرض الموجز لمشروع (لولا) الاقتصادي فلا غرابة أن تقوم البرازيل بعد هذا النمو الاقتصادي، وأن تكون من الدول المقرضة للبنك الدولي، لقد نجح لولا بسبب:

١- رؤيته الواضحة.

٢- وارادته السياسية القوية.

٣- الصدق والشفافية مع شعبه حيث أنه عاش في بيئة فقيرة عمل صباغاً للأحذية منذ طفولته، وخاض غمار الحياة السياسية عندما أصبح بالغاً، وشارك في المنظمات التي تدافع عن حقوق العمال وحقوق الشعوب المهضومة من قبل المتسلطين فهو كان يحس بمعانات شعبه، ولم يغب هذه الصورة عن ذهنه حتى بعد وصوله للحكم.

٤- مع عدم إهمال الأغنياء أثناء حكمه وعدم الانتقام منهم بل شاركهم في عملية نهوض الدولة. ٥- مع تكاتف جماهيري له وامتلاك الشعب الوعي الذي ساعده من خلال أعطائهم ثقتهم وساندوه في مشروعه التقشفي في بداية حكمه. ٦- مع المناخ الديمقراطي الذي تم تهيئته قبل مجيئه بـ١٧ عاماً، لأن الحفاظ على آليات الديمقراطية هو الضمانة الحقيقية لعدم ظهور الفساد واستفحاله، وأن المهم ليس فوز مرشح أي تيار في الانتخابات الرئاسية، بل الأهم هو ضمان إمكانية إسقاط هذا المرشح مرة أخرى أن لم يحقق النجاح من خلال صندوق الاقتراع، لا أن يكون وصوله معناه إلغاء الديمقراطية والعودة إلى أنموذج الرئيس اللانهائي؟، والواقع فإن "لولا" قد خاض غمار الانتخابات الرئاسية، وفشل ثلاث مرات في ١٩٩٠ و١٩٩٤ و١٩٩٨، ثم حقق النجاح في المرتين الرابعة في ٢٠٠٢ والخامسة في ٢٠٠٦، ومن المعلوم أن الذي يحكم البرازيل الآن هي السيدة المناضلة (ديلما روسيف) اليسارية من حزب العمال والتي درست الاقتصاد والتي كانت يوماً من الأيام وبالتحديد عام ١٩٧٠ يتم تعذيبها بالكهرباء والغرق في الماء لمدة ٢٢ يوماً من قبل العسكر وها هي الآن تتربّع عرش البرازيل في العصر الذهبي لهذه الدولة. فقد نجحت عام ٢٠١٠ بوصولها إلى سدة الحكم، وقد نجحت في انتخابات ٢٠١٤ التي خاضها الشعب البرازيلي قبل شهر لتتربع على عرش الرئاسة للمرة الثانية❒

مرافئ

دنيانا التي فيها معاشنا !



د.يحيى عمر ريشاوي

لا يمكن أن تقيّم مستوى رقي وتقدم أي شعب إلا بسلوكياته وتعامله الحضاري مع البيئة المحيطة به، تعامله مع الإنسان والحيوان والجماد، مع ما يحيط به من خيرات وثمرات وأشياء. المستوى الحضاري لا يقاس بالأدبيات، فحسب، وبما تحويه كتب التاريخ من مآثر وإنجازات، السلوك والتعامل الحضاري يقاس بما أنت عليه الآن .. الآن فقط لا غير!

زرت أخيرا عددا من الأخوة العائدين من حج بيت الله الحرام، وكنت أحاول أن أستشف منهم المخفي والمسكوت عنه من أحوال المسلمين، في تلكم البقعة المباركة، ولا أخفي عليكم أنني سمعت منهم ما يسر، وكذلك ما لا يسر، ما لا يسر من تصرفات غير حضارية لبعض المسلمين، وأكوام النفايات الملقاة على جانب الطرقات، والتصرفات غير اللائقة (للبعض) أثناء حدوث الازدحامات، وحال ركوب الحافلات، ودخول مصاعد الفنادق، وغيرها كثير.. كنت أسمع منهم بعض لقطات هذا الجانب المحزن، من تلكم الشعيرة الروحانية العظيمة، وكلي ألم وحسرة واستغراب ! حين كنت أسمع تلك الروايات من الأخوة الحجاج، كنت أفكر بالزوار الأجانب (المسلمين الجدد)، وكيف تكون انطباعاتهم عن واقع المسلمين، في بلد يفترض أن (لا رفث ولا جدال) فيه؟!

نحن نحتاج إلى نقد صريح وبناء لهذه الصور المحزنة، وهذا الجانب السلبي، من واقع بعض المسلمين. نحتاج إلى عشرات المحاضرات، والخطب، والكتيبات، حول (المحافظة على بيئتنا، والالتزام بقوانين السلامة المرورية، وكيفية الوقوف بشكل حضاري أثناء شراء حاجياتنا ومستلزماتنا، ونحتاج إلى دورات في تعلم فن الابتسامة، ولغة المجاملة، و..). وقد أعجبني كثيرا موضوع إحدى البرامج الدينية في فضائية (سبيدة)، حيث خصص الداعية الحلقة، ليس للحديث عن مآثر (عمر)، وغزوات (صلاح الدين)، أو صيام يوم الإثنين والخميس من كل أسبوع، بل خصصها كي يرشدنا إلى كيفية قيادة سياراتنا في الطرقات، والالتزام بالإشارات المرورية، والأخلاقيات الواجب اتباعها، وأنت خلف مقودك، راجعا إلى البيت، أو متجها إلى مكان عملك.. حقيقة أمتعني حديثه الواقعي والحضاري، ودعوت من ربي أن يهبنا خطباء ووعاظا، يحدثوننا عن دنيانا التي فيها معاشنا، كما يحدثوننا عن آخرتنا التي إليها معادنا❑



- ملخص تاريخ قضاء زيبار

عبدالكريم يحيى الزيباري

ملخص تاريخ قضاء زيبار

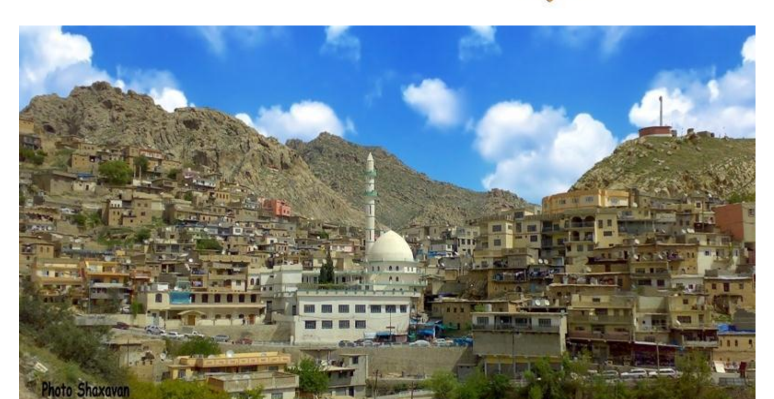


عبدالكريم يحيى الزيباري

الكثير من المدن الكبيرة كانت في جذورها قرىً صغيرة، ثم كَبُرت وتوسَّعت، بحسب القانون الطبيعي لسنن التطور: قرية، ناحية، قضاء، محافظة. لكنَّ (قضاء الزيبار) كان قضاءً طوال العهد العثماني، وذلك بسبب موقعه الجغرافي، وصلاحية أراضيه للزراعة، وكثرة المراعي في السهول المحاذية للزاب الكبير، وكانت قرية (هرني) ناحية. وكان مقر القضاء في قرية (بيره كبره)، الواقعة ما وراء جبل (بيرس)، الذي يطلُّ على ناحية (دينارتة). لكن بسبب وعورة المنطقة، وشراسة أهلها، وقرب الحدود، ارتأى الإنكليز إلغاء الوحدات الإدارية لهذه المنطقة، وهكذا تمَّ هدم القضاء، والقرى المجاورة لأول مرَّة نهاية عام ١٩١٩، ولا زالت بعض القرى إلى اليوم لم تُعمَّر. وتمَّ نقل قضاء الزيبار إلى منطقة (راوندوز)، وظلَّ باسم (قضاء الزيبار) في المكاتبات والمخاطبات الرسمية، لكنَّ موقعه ابتعد مئات الكيلومترات، وانفكَّ ارتباطه بلواء الموصل وعقرة، وتمَّ ربطه بلواء أربيل. وفي عام ١٩٥٢ تمَّ رفع قرية (دينارتة) إلى ناحية، وجرى ربطها بقضاء (عقرة)، التابع إلى لواء الموصل.

مقتل الحاكم العسكري البريطاني لمدينة الموصل

بعد أربعة أيام من وقف إطلاق النار مع



معاقبتهم وإهانتهم، لإثبات قوته ووجوده.

في ١٩١٩/٩/٩ عيّن الكابتن (كي آر سكوت) معاون حاكم سياسي في (عقرة)، في الوقت الذي خلفَ الكولونيل (بيل) الكولونيل (لجمن) في حاكمية الموصل. نهاية تشرين الأول ١٩١٩ زار الكولونيل (بيل) (عقرة)، وتوجَّه إلى (الزيبار)، بصحبة النقيب (سكوت)، ومترجم مسيحي يدعى (عبدالكريم)، من قرية (بيدار)، قرب (زاخو)، ثمَّ استقدمَ (فارس آغا بن محمد آغا بن مصطفى آغا الزيباري) (١٨٨٧-١٩٤١) وشقيقه (محمود آغا)، وابن عمهم (بابكر عثمان مصطفى الزيباري)، وتباحثوا في شؤون المنطقة، وحمّلهم مسؤولية المحافظة على الأمن في المنطقة، وتسليم أسلحتهم، ودفع الضرائب المتأخِّرة عليهم، وطلب منهم (أنْ يُقَدِّمَ كل واحد منهم كفالة نقدية، تكون دليلاً على حسن سلوكهم، وقدرها أربعة آلاف روبية... فاستاؤوا من ذلك، وامتعضوا من هذا التشدد، وخرجوا وهم عازمون على الفتك به في قرية (نباخي)، الواقعة وراء جبل (بيرس)" وتمَّ تنفيذ الكمين بمشاركة (محمد

تركيا، وبتاريخ ١٩١٨/١٠/٣ دخلت القوات البريطانية مدينة (الموصل). قائد عسكري محتل، كيف سيتعامل مع أهل المنطقة؟ ذكر (القصاب) في مذكراته: "(لجمن) في الزيبار: سمعتُ وأنا جالس على سطح دائرة القائممقامية يوم ١٩١٩/١١/٢٩ أحد القرويين ينادي: إنكليز هات.. وإذا بضابط إنكليزي أمامي، يصحبه خمسة عشرَ خيَّالاً، يدخل القرية من جهة (العمادية). ترجَّل الضابط أمامي، وطلب مني أنْ أمسكَ لِجام حصانه، فرفضت، ووكزني بعصاه، وقال: لماذا لا تُمسك بحصاني أيُّها الخائن؟ ..قال: كلكم خونة" . وكان العقيد (لجمن) يتكلم العربية بطلاقة، وباللهجة البدوية، وعاش متنكرا لسنوات في (الزبير) و(الديوانية)، لكنه تعلم اللغة فقط، وبسبب هذه العنجهية والغطرسة سيقتل على يد أبناء (الشيخ ضاري) في ١٩٢٠/٨/١٢. فالمحتل الجديد يعتبر جميع الذين تعاونوا مع المحتل القديم خونة، عليه

صديق البارزاني)، وموافقة شقيقه الشيخ (أحمد البارزاني)، فقتلوا العقيد (بيل)، والنقيب (سكوت)، وجميع من كان معهم، إلا أنَّ المترجم استطاع الفرار والتخفي، ليقتل فيما بعد على أيدي فلاحي المنطقة. وهاجموا المخافر والمقرات الحكومية في (بيره كبره)، واستولوا عليها، ثم بعد يومين هاجموا مقرات الإنكليز في (عقرة)، واستولوا عليها أيضاً. وذكر (محمد أمين عثمان) أنَّ المهاجمين "قتلوا أفراد حامية (عقرة)، وكان عددهم بين ٣٠-٤٠، واستولوا على صندوق الحكومة، المحتوي على أربعين ألف روبية، ونهبوا محتويات دور ضباط الحامية الإنكليز، ومترجم الحاكم السياسي، وأمين الصندوق (أحمد حمدي)، والدكتور (يونس ماهي)، وثلاثة موظفين هنود هربوا إلى قرية (زيوكي)... في ١٩١٩/١٢/١٠ تقدَّم الإنكليز واحتلوا (بيره كبره)، وقبضوا على (عبدالوهاب آغا بن ياسين) كاتب قضاء الزيبار، بتهمة مساندة الزيباريين، وسجن لستة شهور.. وأحرق الجنود الإنكليز دور الرؤساء الزيباريين، والبارزانيين، ورفضَ (طه النهري) و(سيتو الأورماري) اقتراح قائممقام (نيري) التركي، بأن يبادرا إلى مساعدة الزيباريين.. وعندما أنهى الإنكليز الحركات، قرروا تقليص حدود سيطرتهم إلى (عقرة)، والكف عن محاولات التمسك ببلاد الزيبار، بين عقرة والزاب مرة أخرى" . وقام الإنكليز بإلغاء قضاء الزيبار جغرافيا، وتسمية موقع جديد باسم قضاء الزيبار، في منطقة (راوندوز)، وتعيين (إسماعيل بك بن سعيد بك الراوندوزي) قائممقاماً لقضاء راوندوز، باسم قضاء الزيبار" .

ونشرت جريدة (العرب) البغدادية، في عددها ٧٤٣ في ١٩١٩/١١/١٢: "وأتت أخبار من الموصل تنبئ بوفاة (ج. هـ. بيل) حاكم سياسي الموصل، والكابتن (سكوت)، معاون حاكم سياسي عقرة، وقد قتلهما المعادون من الأكراد في ١٩١٩/١١/٤". وانفردَ (رزا زبير محمود آغا) بروايةٍ عن جدِّه، أنَّ العقيد (بيل) كان -فضلاً عن الغرامات- قد اشترطَ على زعماء منطقة زيبار، قبول عشرة عائلات أرمنيَّة، في كل قرية من قُرى المنطقة.

(فارس آغا)، مع مائتي عائلة زيبارية، عبروا الحدود إلى منطقة (هكاري)، في سهول (بحيرة وان) جنوب تركيا، ولم تستطع الحكومة التركية آنذاك إيواءهم، خوفاً من الإنكليز، فطلبوا منهم مغادرة الأراضي التركية، فعبروا الحدود إلى (إيران)، وبقوا هناك ستة شهور في ضيافة (سمكو شكاك)، ثمَّ طلبَ منهم المغادرة لأسباب سياسية، فعادوا إلى (العراق). في هذه التغريبة الزيبارية، على حدود العراق وإيران وتركيا،

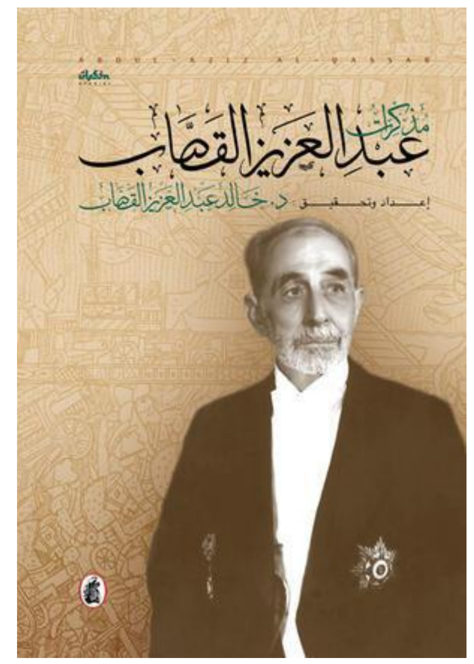
في مناطق جبلية وعرة، خاضَ الزيباريون عِدَّة معارك، وخاصة داخل الحدود العراقية، مع مقاتلين من العشائر الكوردية، قام الإنكليز بتجنيدهم. وأنَّ (فارس آغا) قال لـ(نعمت باني): "ابقَ في نهاية القافلة، وإذا رأيتَ امرأة غير قادرة على العبور فاقتلها، أفضل من أنْ تقعَ أسيرة بيد العدو" . و"حالما علمت سلطات الاحتلال البريطانية بمقتل الحاكم السياسي (بيل)، ومعاونه (سكوت)، واستيلاء رجال العشائر على (عقرة)، أصدرت الأوامر إلى النقيب (كيرك)، معاون الحاكم السياسي في (راوندوز)، لاسترجاعها من أيدي الثوار، والتنكيل بهم. وفي سهل (حرير) و(باطاس)، تصدت له عشائر السورجية في عِدَّة معارك... في ١٩١٩/١١/٢٧ دخل (عقرة) بدون مقاومة، لأنهم تركوها لئلا يُصاب الأهالي بأذى" .

في خريف ١٩٢٠ اضطرَّ الزيباريون أنْ يعودوا إلى قراهم، فجنَّد الإنكليز رتلين من المقاتلين المرتزقة، الأول بقيادة (ملك ناطور التياري، والثاني بقيادة اثنين من آغاوات العشائر الكوردية في (دهوك)، وتقدَّما إلى منطقة الزيبار، تعرَّض الرتلان إلى عِدَّة كمائن وغارات، الأول بقيادة (خالد آغا بن محمد آغا الزيباري)، ومعه أحدَ عشرَ رجلاً، الثاني بقيادة (أحمد جاربوتي)، والثالث بقيادة (نعمة باني)، والرابع بقيادة (محمد آموكا)، ثمَّ أرسلَ (فارس آغا) أربعينَ رجلاً، بقيادة (عبدالخالق دينو ميرخان)، فانقسم الزيباريون إلى قسمين: الأول بقيادة (خالد آغا)، والثاني بقيادة (عبدالخالق)، وكمنَوا لهم في منعطف الطريق إلى قرية (نباخي)، ونشبت المعركة، وهبَّ الزيباريون من كل القرى للدفاع عن أنفسهم، وكان معظمهم بدون بنادق، حتى أنَّ (عمر آغا دينو) كان معتزلاً في قريته، بسبب مشاكل عشائرية مع (فارس آغا الزيباري، هبَّ مع أبنائه، وأبناء عمومته، للدفاع وقال:

– أنا لا أدافع عن فارس آغا، أنا أدافعُ عن ديني وقريتي وعائلتي.

واستولى (حجي حسين) على بندقية (ملك ناطور) التياري، ولا زالت عائلته تحتفظ بها، ومُنِّيَ الرتلان بخسائر فادحة، ومن بين قتلى الزيباريين كان (محمد شريف الزيباري). بعد هذه الهزيمة، لم يحاول الإنكليز إعادة الكرَّة، واكتفوا باعتبار هذه قرى الزيبار خارج السيطرة والخدمات، وأدركوا أنَّ العشائر الكردية في الاقتتال الداخلي مدفوع الثمن، لن تكون جادة، خوفاً من عمليات الثأر.

عند تشكيل الحكومة العراقية، بدأت المفاوضات مع الزيباريين في قرية (رأس شهي)، وفرضوا غرامة أربعين بندقية على الزيباريين، ورفضَ (فارس آغا). ثم جرت



الجولة الثانية من المفاوضات في قرية (سيسنا)، برعاية (حجي قادر آغا الشوشي)، والذي قال بأنَّه سيدفع عشرين بندقية، للتخفيف عن (فارس آغا)، فوافق الأخير. وتمَّ انتخاب (فارس آغا) عضواً في (مجلس النواب العراقي)، للدورتين السابعة والثامنة (١٩٣٧- ١٩٣٩)، ومن بعدهِ شقيقه (محمود آغا) الزيباري، عضواً للدورات (١١-١٦)، للفترة من ١٩٤٧ ولغاية ١٩٥٨.

قضاء الزيبار في الوثائق والمذكرات

يقول (عبدالعزيز القصَّاب) في مذكراته: "كان المركز عند تسلمي القضاء في ١٩١٨/٣/١٠ في (بيره كبره)... وأكثر الموظفين من المهاجرين من منطقة (وان)، بعد أنْ احتلَّها الروس، ويعملون بأجور يومية، وهم مكلفون بجمع الضرائب، والتكاليف الحربية، من سكان القرى المحيطة بالمركز" .

وتظهر حدود القضاء في خرائط الإنكليز، والدولة العثمانية، يحدها من الشمال: مقاطعتي (نهري) و(كور)، وجنوباً: مدينة (عقرة)، وغرباً: (العمادية)، وشرقاً: قضاء (راوندوز). وتعتبر مناطق الزيبار شبه جزيرة على ضفاف الزاب الكبير، وروافده. يتابع (القصاب) مذكراته: "علمت بعد أربعة أيام أنَّ معلم مدرسة قرية (هرن)، قد ذهب إلى منطقة الهركي والكردي ونيروه، لجمع التكاليف الحربية، ورجع ومعه قافلة من ستين كرديًّا من أهالي القرى، يحمل كل واحد منهم ما يزيد على الأربعين كيلو من الحبوب، تسلقوا بها جبلين مرتفعين، وكان قد مات أربعة منهم في الطريق... صباح اليوم التالي جاءني مدير المال، ووضعَ أمامي اثنتين وثلاثين ليرة ذهبية.. سألته: كيف تصرف سابقاً في أحوال كهذه، أجاب: سلفكم كان يأخذ نصفها، ويوزِّع ما تبقى على أعضاء اللجنة: مدير المال، ومأمور التحصيلات، وبابكر آغا" .

قرر مجلس الوزراء في جلسته المنعقدة في ١٩٢٤/١٢/١٦ (إحداث قضاء في الزيبار، ويشتمل على ناحيتي (نهلة) و(بارزان)، وفك



١٩٤٤م: صورة نادرة تجمع الزعيم الكردي مصطفى البارزاني الثالث في الصف الأمامي من يمين الصورة مع عدد من رؤساء ووجهاء العشائر الكردية.

Mustafa Barzani (front row, third from right) with Kurdish tribal leaders, 1944.

ارتباطهما عن قضاء عقرة)، ونشر القرار في جريدة (الوقائع العراقية) العدد ٢٦١ في ١٩٢٥/١/١٥. وكانت الكابينة السادسة لمجلس الوزراء، والوزارة الهاشمية الأولى (١٩٢٤/٨/٢- ١٩٢٥/٦/٢١). وحين أصدرت الكابينة الخامسة والخمسون، وكانت الوزارة السعيدية الثالثة عشرة (١٩٥٥/١٢/١٧- ١٩٥٧/٦/٢٠) نظام الرواتب والأجور رقم (٣٢) بتاريخ ١٩٥٦/٨/٢، ونشر النظام في جريدة (الوقائع العراقية) العدد: ٣٨٤٩ في ١٩٥٦/٠٨/٢٣ ، كان قضاء الزيبار مذكوراً في الجدول رقم (ب)، ضمن الأماكن التي تمنح فيها المخصصات المحلية بنسبة ٧ ٪ من راتب الموظف، وتابعاً للواء أربيل، بينما كانت قرية (هرن)، تابعة لناحية (نهلة)، وقرية (هوكي) تابعة لقضاء (عقرة)، التابع للواء الموصل. وهذا دليل على أنَّ مركز قضاء الزيبار القديم لم يعد له وجود، وكان قد تمَّ نقل الدوائر الإدارية والموظفين إلى (راوندوز)، التي صار اسمها قضاء الزيبار، بينما لم يعد لاسم (رواندوز) وجود في الخرائط والمخاطبات الرسمية والقوانين والتعليمات والأنظمة التي صدرت من الحكومات آنذاك.

ويتمم (القصاب) مذكراته: "من رجال الزيبار البارزين: (فارس آغا بن محمد آغا)، وإخوانه: (محمود) و(أحمد)، وقريبه: (بابكر)،

وأولاد (سليم آغا): (علي، ومسيح، وتتو آغا)، و(عبدالقادر شوش)، و(محمد آغا شيروان)، و(نعمة آغا درويش). وزرتُ أثناء تجوالي في منطقة (بازي بروش) قرية (بارزان)، واجتمعت بإخوان الشيخ (عبدالسلام ابن الشيخ محمد البارزاني)، وهم: (أحمد، ومحمد صديق، ومصطفى، ومحمد بابو)، وكانوا شبابا تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشر والعشرين، وجميعهم منزوون في تكية أبيهم" . ونحن نعلم أنَّ (ملا مصطفى البارزاني) مواليد ١٩٠٣، ولهذا كان عمره حين قابله (القصَّاب) خمسة عشرَ عاماً، وحين أعدِمَ شقيقه الأكبر (عبدالسلام)، كان عمره إحدى عشرةَ سنة، وأنَّ الشيخ (أحمد) البارزاني مواليد ١٨٩٦، لهذا كان عمره اثنتين وعشرين سنة، حين التقى بـ(القصاب). وكانت المنطقة تعاني توتراً أمنيَّاً آنذاك، لقرب العهد بانتفاضة الشيخ (عبد السلام البارزاني) (١٩٠٩–١٩١٤)، الذي اعتقل غدراً في (تفليس)، وأُعدِمَ بأمر من (سليمان نظيف)، والي الموصل، في ١٩١٤/١٢/١، مع (محمد آغا هيشه تي)، (عبدي آغا مزوري)، (علي بن محمد أمين)، و(تتر علي سيني)❐

الهوامش:

١– مذكرات عبد العزيز القصاب، إعداد وتحقيق: د. خالد عبد العزيز القصاب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٧، بيروت، ص١٦٢.

[٢]– عبدالمنعم الغلامي، ثورتنا في شمال العراق: ١٩١٩– ١٩٢٠، مطبعة شفيق، ١٩٦٦، بغداد، ص٧٦.

[٣]–محمد أمين عثمان، حصاد الحنظل، دهوك، ١٩٩٨، ص٤٣. الغلامي، ثورتنا في شمال العراق، ص٨١.

[٤]–المس بيل، فصول من تاريخ العراق القريب، ترجمة: جعفر الخياط، دار الرافدين، ٢٠٠٤، بغداد، ص٢٢٧– ص٢٢٨.

[٥]– رزا زبير زيباري، الزيباريون والتاريخ، مطبعة هوار، ٢٠١٢، دهوك، ص٢٢.

[٦]–جميد شكري، عقرة في العد الملكي، دار سبيريز للطباعة والنشر، ٢٠٠٨، دهوك، ص٤٣–٤٤. ومصدره: الغلامي، ثورتنا في شمال العراق، ص٨٢.

[٧]– مذكرات عبد العزيز القصاب، إعداد وتحقيق: د. خالد عبد العزيز القصاب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٧، بيروت، ص.١٥٥

[٨]– مذكرات عبد العزيز القصاب، إعداد وتحقيق: د. خالد عبد العزيز القصاب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٧، بيروت، ص١٥٧.

[٩]– مذكرات عبد العزيز القصاب، إعداد وتحقيق: د. خالد عبد العزيز القصاب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٧، بيروت، ص١٥٩.



– لقاء مع الشاعرة والأديبة الكويتية سعدية مفرح

حاورها: بسام الطعان



سعدية مفرح: القصيدة الحقيقية تظل حية ومتوهجة دائماً

حاورها: بسّام الطعان

✍ شاعرة وناقدة وصحفية كويتية، تعمل بالصحافة منذ عقد ونصف، تُرجمت قصائدها إلى الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية والسويدية والطاجيكية والفارسية، تهتمُّ بالكتابة الشعريّة للأطفال، وأصدرت لها مجلة (العربي) مجموعة شعرية للأطفال بعنوان (النخل والبيوت).. فازت بعدة جوائز شعريّة، وصدرت عن تجربتها عدة كتب ودراسات، باللغتين العربية والإنكليزية.. تنشر قصائدها ودراساتها في الكثير من الصحف والدوريات العربية. وقد صدر لها: (آخر الحالمين كان) شعر/ ١٩٩٩، و(تغيب فأسرج خيل ظنوني) شعر/ ١٩٩٤، و(كتاب الآثام) شعر/ ١٩٩٧، و(مجرد مرآة مستلقية) شعر / ١٩٩٩، و(تواضعت أحلامي كثيراً) شعر/ ٢٠٠٦، و(كتاب سين، نحو سيرة ذاتية ناقصة) / ٢٠١١.

*** أنت شاعرة وناقدة وصحفية، ما سبب توجهك للتنويع في الكتابة الأدبية؟ لمن تنحازين أكثر: للشعر، أم للنقد، أم للعمل الصحفي؟**

– أنحاز لذاتي التي لا تتشظّى كما يوحي السؤال، بل تتنوّع وتزداد ثراءً، عبر كل هذه الممارسات الكتابية. أحاول أن أعبِّر عن ذاتي بواسطة الكتابة، محض الكتابة، ولست أبحث عن الأسباب، لأنها لا تعنيني، مع الأخذ في الاعتبار أن الصحافة هي مهنتي التي مارستُها منذ أن كنت في الثامنة عشرة من عمري، وقبل أن يصدر لي ديوان شعري أو تنشر لي قصيدة، وما زلت أُمارسها بذلك الشغف الأول، دون أن أشعر بالملل مثلاً. وأستطيع القول إنني كشاعرة استفدت كثيراً من عملي في الصحافة، فقد فتحت لي أبواب النشر بسرعة، واختصرت عليّ سنوات من محاولات التعريف بتفاصيل تجربتي الشعرية، وسهلت لي التعرّف على تجارب أُخرى شعريّة ونقديّة وصحفيّة أيضاً، ولهذا أشعر أنني مدينة لها بأحلى كتاباتي.

*** هل لك أن تضعي القارئ في صورة الحركة الشعرية في الكويت، وأين مكانها على الخارطة الشعريّة العربيّة؟**

– على خط متوازٍ مع تجليّات الحركة الشعريّة العربيّة المتوحّدة في كل مكان، ولا أنظر للحركة الشعرية في (الكويت) بمعزلٍ عن إطارها العربي، وخصوصاً بعد أن صار التواصل بين التجارب، وأصحاب التجارب الشعرية، في جميع أقطار الوطن العربي، أسرع وأكبر.

*** كناقدة، ما هي رؤيتك للعمل الإبداعي؟**

– أفضل أن أتلقّى العمل الإبداعي كمتلقية وقارئة، وبتلك الصفة تكون اللذة هي بوابتي الأُولى نحو العمل، ولم أعد أجبر نفسي على قراءة عمل لم يعجبني منذ صفحاته الأولى، لمجرّد أنني أود الكتابة عنه مثلاً.

*** الحركة النقدية العربية هل هي ضعيفة في الوقت الراهن؟ وهل لإرهاصات الوضع الثقافي العربي أثر في ضعف الحركة النقدية؟**

– ليست ضعيفة، بل أرى أن النقاد هذه الأيام أكثر من الشعراء والروائيين، ولكنّهم يركّزون على النقد التنظيري أكثر من تركيزهم على النقد التطبيقي. أنا متفائلة بالمشهدين الشعري والنقدي على حدٍّ سواء، وأرى أن الإبداع العربي بخير. فقط نحن بحاجة للمزيد من الثقة بما نكتبه، وما نكتب عنه.

*** أيهما أكثر غنى من حيث الإيقاعيّة، الشعر العربي القديم، ببنيته العموديّة، أم الشعر العربي الحديث، ببنيته التفعيلويّة؟**

– بصراحة، لا أقيس الأمور هكذا، أعني أنني لا أُمسك بالآلة الحاسبة لأحصي الثروات الإيقاعية التي يتمتع بها الشعر العربي القديم والشعر العربي الحديث، حتى أنني لا أستسيغ أن أصف الشعر بالقديم أو الحديث، فالقصيدة الحقيقية تظلُّ حيّةً ومتوهجة دائماً، ولنا في تراثنا الشعريّ، الذي نجح في اختبار الزمن، مثال على ما نقول. ثم إن الإيقاع ليس هو المعيار على شعريّة النص، مع

إعجابي الشديد به كأحد أهمّ مكونات النص الشعري العربيّ، بغض النظر عن شكل هذا النص. ولعلي لا أُبالغ إذا قلت: إنني أجدُ في كثيرٍ من قصائد النثر، من الإيقاع، ما يطغى على الإيقاع الذي أجده في بعض القصائد التفعيليّة، على صعيد إحساسي بذلك الإيقاع، وملاءمته لأجواء النص النفسية، على سبيل المثال.

*** يُلاحظ أن قصيدة النثر بدأت بالانحسار لحساب شعر التفعيلة، الذي ما يزالُ يؤكّد جدارته الفنية، من حيث الشكل، في استيعاب الطموحات الشعرية لدى الكثيرين من الشعراء العرب المعاصرين، ما رأيك؟**

– بصراحة لا ألحظُ ذلك، فنظرة سريعة على المجلات الأدبية والصفحات الأدبية في الصحف اليومية – على سبيل المثال – تجعلُنا نكتشف دون عناء أن أكثر من ٨٠٪ مِمّا يُنشر من شعرٍ ينتمي لحقل قصيدة النثر. أنا محررة صفحة ثقافية لمدة تقرب من العشرين عاماً، وأستطيع أن أحكم على الأمر بسهولة على هذا الصعيد. وهذا طبعاً لا يُلغي الجزء الثاني من فرضية السؤال الذي يقول إن "شعر التفعيلة ما يزالُ يؤكّد جدارته...إلخ"، فأنا أيضاً مؤمنة بذلك، ولكنني أيضاً مؤمنة بأن قصيدة النثر قد أكّدت جدارتها على هذا الصعيد، وقبلهما القصيدة العموديّة. لا أحاكم الشكل، ولا أنحاز تقييمياً لشكلٍ ضد آخر، وإن انحزتُ إبداعيّاً مثلاً لشكلٍ معيّن، شرط ألاّ يكون شكلاً جاهزاً قبل تكوّن القصيدة.

*** أيضاً ثمة انحسار آخر للشعر العمودي، الذي يكاد يختفي عن الأنظار، ولا يظهرُ للعيان إلاّ في بعض المناسبات الرسمية والتظاهرات الوطنية؟**

– وهذا أسوأ ما في الأمر، أعني أن يرتبط شكلٌ معيّن من أشكال الكتابة الشعرية بموضوعاتٍ بعينها، كأن ترتبطَ القصيدةُ العموديّة بما يسمّى بالقصائد الوطنية، وقصائد المديح تحديداً. لعلَّ هذا أحد أسباب الانحسار الذي يشير إليه السؤال. الشعر ضدّ الأشكال الجاهزة، وضدّ البلاغة الجاهزة، بل هو ضدّ كل ما هو جاهز وناجز مسبقاً. الشعر دهشة متناسلة عن بعضها البعض، ولا يقتله أكثر من أن يجد نفسه محاصرا بالشكل، قبل أن يتحقّق كقصيدة.

*** هل الشعر في الوقت الحالي صالح للتعبير، وقادر على مجاراة العصر، وهل ذلك يتطلّب مواهب متميزة، خاصة، قادرة على تفجير طاقاتٍ تعبيريّة جديدة؟**

– القصيدة قادرة على خلق زمانها، وهي ليست مجرّد وسيلة للتعبير، هي لحظة دهشة كامنة في اللازمان واللامكان، لا تحتاجُ سوى إلى ومضة من الموهبة كي تخلق زمنها ومكانها الخاصين، ولعلّها تكون هي الزمان وهي المكان.

*** لدى العرب الآلاف من الشعراء المعاصرين، وأيضاً الكثير من الشاعرات، ولكن ليس لديهم الآحاد من الشعراء الكبار من جيل الروّاد، كأحمد شوقي، والشابي، والجواهري، والسيّاب، وقبّاني، والقائمة تطول؟**

– في زمن الشعراء الكبار، الذين ذكرتهم في سؤالك، كان يوجد الآلاف من الشعراء المعاصرين آنذاك، لكن اختبار الزمن لا ينجح فيه سوى الكبار يا عزيزي.

*** ما هي المعطيات التي يتمّ بها النقد الثقافي السليم؟**

– لا أعرفُ، ولا أستطيع أن أكتب وصفة دقيقة تشبه وصفات الأطباء في هذا الشأن، ولكنني أستطيع على الأقل أن أشيرَ إلى قاعدة شرعية تصلُح لأن تكون قاعدة ثقافية، وهي تقول: "استفتِ قلبك" أو "استفتِ ذائقتك"، لأن النقد – وخصوصاً نقد القصيدة – يجب أن ينطلق من الذائقة، قبل أن يستعين بأدوات نقديّة أخرى، ليست سوى أدوات مساعدة.

*** كيف تكتبين القصيدة، وما هو تصورك للشعر وطرائق تعبيره، وكيف تبدو رؤيتك عبره للعالَم من حولك؟**

– ليتني أعرف كيف أكتب القصيدة، بل لو كنت أعرف من أين أَبدأها، وكيف أُنهيها، على الأقل، لكتبت كل يوم عشر قصائد. ما زالت القصيدة بالنسبة لي سرّاً عصيّاً على البَوْح بتفاصيله، ولغزاً مستحيل الحلّ، ولكنّها على أيّ حال ما زالت أيضاً قادرة على انتشالي من كلِّ تفكيرٍ مسبق، وكلّ تخطيط جاهز للكتابة.

*** هل على الشاعر أن يلتزمَ دائماً بقضايا الوطن والأُمّة؟**

– ليس على الشاعر شيء، سوى أن يكون نفسه، وسوى أن يعبِّر عن ذاته، بكلِّ صدق وجمال وحِرَفيّة. أمّا تلك القضايا الكبرى للوطن والأمة، فليستْ من مهمّات الشاعر، وهو بالمناسبة لا يملك من الأدوات ما يجعله قادراً، كشاعر وحسب، على الاهتمام بها. ثم إن أهل السياسة، في وطننا العربي، ينافِسُون الهمّ الراقد على القلب، في كثرة عددهم، وقوة عديدهم، فلندعْ قضايا الوطن والأُمّة لهم، وإلاّ فماذا يفعلون؟!

*** هل من أصواتٍ شعريّة جديدة في (الكويت)، يمكن أن ينظرَ إليها بعين الدهشة والإعجاب؟**

– بالتأكيد، هناك شعراء شباب تتخطّى تجاربهم حدود الدهشة والإعجاب، ومنهم (سعد الجوير)، و(محمّد هشام المغربي)، و(حمود الشايجي)، وغيرهم، لكن علينا الإشارة إلى الأصوات القصصيّة والروائيّة، التي ظهرت في (الكويت) مؤخّراً، متفوّقة في عددها، وربما في مستواها، على الشعراء، ومعظمها أسماء نسائية. وأستطيع الإشارة على هذا الصعيد إلى (استبرق أحمد)، و(ميس خالد العثمان)، و(بثينة العيسى)، و(هبة بوخمسين)، وغيرهن❒



المعركة الحاسمة مع الإرهاب



صلاح سعيد أمين
Selah1434@gmail.com

ربما يكون مصطلح (الإرهاب) من أكثر المصطلحات الشائعة والمتداولة اليوم، وعلى كل المستويات، والكل يريد أن ينأى بنفسه عن (الإرهاب)، سواء أكان متهماً به، أو ممارساً له. وعالم اليوم يعاني كثيراً من (الإرهاب) وتداعياته الخطيرة، حيث أصبح شغله الشاغل، ويحاول (الكل) أيضاً أن يعالج مرض (الإرهاب)، وأن يجد له علاجاً شافياً كافياً.

لكن يخطئ (الكل)، شاء أم أبى، قصداً أو عن غير قصد، في محاولته كبح جماح (الإرهاب)، والقضاء عليه. ومن الواضح أن الأخطر من (الإرهاب) نفسه، هو عدم وجود تعريف جامع مانع شامل له على المستوى الدولي والإقليمي، وحتى في داخل الدول نفسها، بشكل يحدد مشخصاته، ويميزه عن النضال والكفاح المشروع، الذي تعترف به وتعرفه كل القوانين السماوية والوضعية، والذي كفلته للجميع كل الدساتير، وفي كل بلدان العالم.

نحن بحاجة ماسة – وخصوصاً في وضعنا الراهن، وقبل أن نفتح قائمة جديدة، وندرج فيها كل من لا نحب أن نرى وجهه، وكل من لا نقبل فكره وطريقته في الحياة – إلى أن نجتمع على طاولة واحدة، وأن لا نتركها حتى نضع تعريفاً جامعاً شاملاً لهذه الظاهرة، ونخرجها من أزمة الهوية. وبالتالي فإن المعركة الحاسمة للإرهاب تكمن هنا، وتنتهي من هنا، وليس بتشكيل التحالفات، والضربات الجوية، وتحشيد البشر.

اليوم، من يملك القوة ويسيطر على الآخر (عالمياً، إقليمياً، داخلياً)، هو الذي يحدد هوية (الإرهاب) ويلصقها بالآخرين، وبالتالي يزج بمن لا يروقون له في غياهب السجون، ويفرض عليهم أحكاماً قاسية غير متوقعة من أحد..

إن التاريخ لا يرحم، وإن الضمائر الحية لا تُخدع، ولذلك فمن واجب المؤسسات الدولية المعنية، أن تحاول محاولة جدية لرسم صورة للإرهاب، وأن تمنحه هويته، بغية أن لا تختلط الملفات، وأن لا يستغل (الإرهاب) من قبل (الأقوياء)، لكي يمارسوا قتل البشر والحجر، تحت ذريعة (الإرهاب)، من دون أن يستطيع أحد أن يقول لهم: كفى!❐

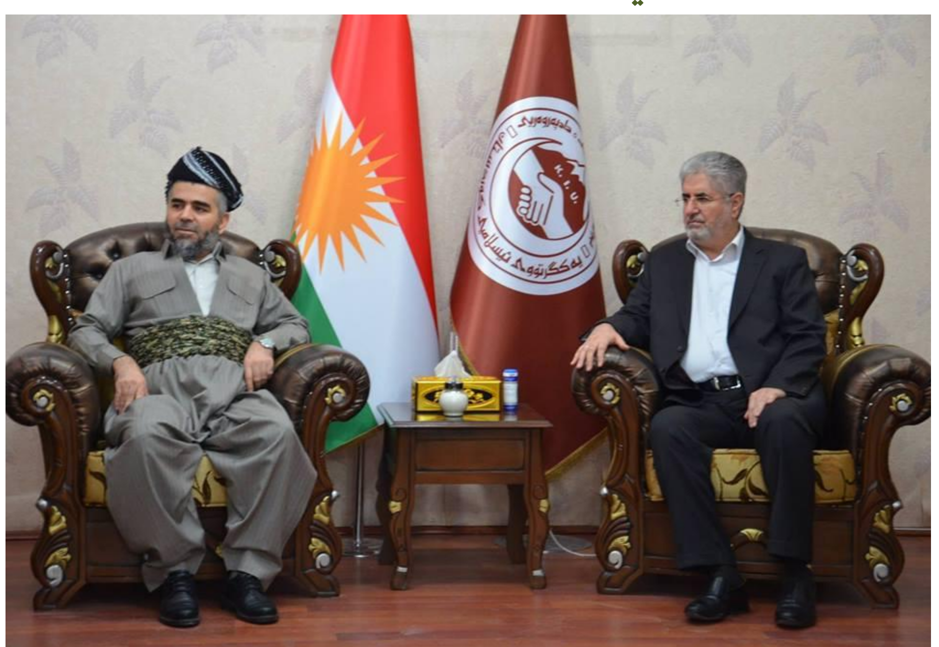
أخبار وتقارير

- أخبار — إعداد: المحرر السياسي

- شخصيات سياسية وأكاديمية تطرح (خارطة طريق) لإقامة الدولة الكوردية — تقرير: الحوار
- ملتقى حواري شرق أوسطي بأربيل يبحث قضايا العراق والمنطقة — إعداد: المحرر السياسي
- ندوة تناقش التطرف الديني وسبل معالجته — إعداد: المحرر السياسي

أخبـار

إعداد: المحرر السياسي



اجتماع مشترك للاتحاد والجماعة الإسلاميين

عقـد المكتبـان السياسـيان للاتحـاد الإسلامي الكوردستاني، والجماعة الإسـلامية الكوردستانية، اجتماعاً مشتركاً، بأربيل، يوم الإثنين الموافق ٢٤/١١/ ٢٠١٤.

الاجتماع المشترك، عُقد بإشراف الأمين العام ليككرتوو (محمد فرج)، وأمير الجماعـة الإسلامية (علي بابير).

وتنـاول المكتبـان السياسـيان في اجتماعهما عدة محاور، منها: تفعيـل مضـامين مشـروع التعـاون الإسـلامي بـين الجـانبين، بالاضـافة إلى بحـث أوضـاع كوردسـتان السياسـية والأمنيـة، والتأكيـد علـى إعـادة مسـودة دسـتور الإقلـيم إلى البرلمـان الكوردستاني.

وناقش الجانبان أيضاً الاتفاق الأولي بين أربيل وبغداد، وشددا على دعمه باعتباره مخرجاً من الأزمة.

وجدد المكتبان السياسيان للاتحاد الإسلامي الكوردستاني، والجماعة الإسلامية الكوردستانية وقوفهما إلى جانب القوى الوطنية الكوردية، وقوات بيشمركة كوردستان في مواجهة (داعش)، مثمنين دور القوات الكوردية في الدفاع عن (كوباني).

إدانة التفجير الآثم بأربيل

أدان الاتحاد الإسلامي الكوردستاني بشدة التفجير الآثم الذي استهدف مبنى محافظة أربيل.

وقال الاتحاد الإسلامي الكوردستاني في بيانين أصدرتهما (الكتلة البرلمانية) و(المركز الثاني) إن التفجير الآثم اغتال الأبرياء واستهدف الاستقرار، وهو يُظهر مدى الحقد الدفين الذي تكنه الجهة المنفذة تجاه الكورد وكوردستان.

وعبر الاتحاد الإسلامي الكوردستاني عن استهجانه وإدانته الشديدة للتفجير، داعياً الجهات ذات العلاقة في الحكومة إلى سد الثغرات الأمنية والتصدي بحزم للعدوان.

كتلة يككرتو: قانون العفو العام لا يشمل المحكومين بقضايا الإرهاب

شرع برلمان كوردستان بإصدار مشروع العفو العام، والذي يهدف إلى تخفيف الأحكام الصادرة بحق المحكومين، سواء بالإفراج عنهم، أو تخفيف الأحكام الصادرة بحقهم، وإصدار صيغه عادلة لتنفيذه، حيث طالب بعض الأعضاء بتخفيف الأحكام الصادره بحق الذين اتهموا بالإرهاب، ممن لم تتلطخ أياديهم بدماء المواطنين، ولكن لم يتم الاتفاق عليه حتى الآن، وهو موضع دراسة بين الأعضاء والكتل البرلمانية.

وفي هذا السياق قال (أبو بكر هلدني) رئيس كتلة "يككرتوو" وعضو اللجنة القانونية، في تصريح صحفي: "هناك آراء مختلفة بهذا الشأن حول المواد التي تشمل الفئات، وهي ما يتم الصلح بين الأطراف المختلف بينها، وكذلك المحكومين الذين أمضوا فترة كبيرة من محكومياتهم في السجن، وهناك فئات غير مشمولة، وهي الإرهاب والمخدرات وزنا المحارم".

النائب عادل نوري: هناك هدر كبير في الأموال المخصصة للنازحين

كشف نائب عن كتلة الاتحاد الإسلامي الكوردستاني بمجلس النواب العراقي عن ملفات فساد تتعلق بلجنة الهجرة والمهجرين لمساعدة النازحين العراقيين بمدينة دهوك.

وقال النائب عن كتلة الاتحاد الإسلامي الكوردستاني بمجلس النواب العراقي، وعضو اللجنة المشكلة لمتابعة أعمال لجنة الهجرة والمهجرين (عادل نوري)، إن اللجنة تمكنت من رصد، وكشف العديد من ملفات الفساد بلجنة الهجرة والمهجرين الخاصة بمساعدة النازحين بمدينة دهوك.

وأوضح (عادل نوري) بأنهم رصدوا ما لا يقل عن ثلاثة مليارات من الأموال المهدورة في صفقات شراء الخيام للنازحين في دهوك.

بيان نوري تستعرض واقع المرأة العراقية

بحثت وزيرة الدولة لشؤون المرأة (بيان نوري توفيق) مع السفير الأمريكي في بغداد (ستيوارت جونز)، آفاق التعاون المشترك بين الجانبين حول القضايا الخاصة بالمرأة، لا سيما القضايا الراهنة المتعلقة بأوضاع النازحات وأسرهم.

وذكر بيان للوزارة، تلقت (الحوار) نسخة منه، أن الوزيرة (بيان نوري) استقبلت السفير الأمريكي في مكتبها، حيث استعرضت أهم الخطط والبرامج التي تعمل عليها الوزارة، والمتمثلة بالنهوض بالمرأة، ومجابهة العنف الموجه ضدها، ومتابعة أحوال النساء النازحات.

وفي الصدد ذاته استقبلت وزيرة الدولة لشؤون المرأة (بيان نوري) القائمة بالأعمال البريطانية في بغداد (بلندا لويس) بمقر الوزارة، وتباحث الجانبان سبل تعزيز التعاون في مجال مساعدة النساء النازحات والناجيات من الاعتداءات الجنسية.

وقالت الوزيرة الكوردية إن وزارتها تنسق مع مختلف الجهات الحكومية والمدنية لتقديم الخدمات الانسانية والنفسية والصحية للنساء النازحات، لافتة إلى وجود نحو ٢٠٠ إمرأة تم تحريرهن من مسلحي (داعش)، في إقليم كوردستان، وهن بحاجة ملحة إلى رعاية صحية ونفسية❑

شخصيات سياسية وأكاديمية

تطرح (خارطة طريق) لإقامة الدولة الكوردية

طرحت شخصيات سياسية وأكاديمية وإعلامية ونشطاء مجتمع مدني مشروعاً يتضمن خطوات لاستقلال إقليم كوردستان وإقامة الدولة الكوردية.

وجاء المشروع على شكل مذكرة حملت عنوان (خارطة طريق خاصة بخطوات تحويل جنوب كوردستان لدولة مستقلة) – حصلت (الحوار) على نسخة منها – موجهة إلى الرئاسات الثلاث في الإقليم، ورؤساء الأحزاب الكوردستانية، ومسؤولي منظمات المجتمع، ومنظمات حقوق الإنسان.

والمذكرة المؤرخة في ٢٠١٤/٨/٣، ذيلت بأسماء وتواقيع تلك الشخصيات، وهم: (عمر عبد العزيز – رئيس كتلة يككرتوو السابق في برلمان كوردستان)، (د. أنور محمد فرج – أستاذ جامعي)، (د. كنعان حمه غريب – أستاذ جامعي)، (د. رؤوف كريم – أستاذ جامعي)، (بيخال أبو بكر – أستاذة جامعية)، (عبد السلام مدني – ناشط مدني)، (د. ريبوار كريم – أستاذ جامعي)، (آرام قادر – برلماني سابق)، (حامد محمد علي– كاتب وصحفي)، (محسن جوامير– مثقف وكاتب)، (د. يحيى عمر ريشاوي– إعلامي وأكاديمي)، (عطا محمود – ناشط حقوقي).

واستهلت المذكرة بالقول: من دافع همومنا التشاركية، ومن منطلق المسؤولية التي نقتنع بها جميعاً، نحن مجموعة من الشخصيات السياسية والأكاديمية والثقافية، استشعرنا الحاجة إلى إعداد (خارطة طريق) تحقيقاً لهذا الهدف، نوجهها إلى القيادة السياسية والرأي العام الكوردستاني.

وتابعت المذكرة قائلة: نناشد المراكز السياسية، والدبلوماسية، والإعلامية، والدينية، إلى وضع خلافاتها جانباً، والعمل معاً يداً واحدة لإطلاق حملة لوضع خطة مشتركة، بهدف تهيئة الأرضية في الذكرى المئوية لـ(اتفاقية سايكس – بيكو) التي ستحل في ١٦/ ٥/ ٢٠١٦، والفكرة هي الإسراع بإنجاز الأعمال الأساسية في هذه الحملة الشاملة والموحدة، وإعلان اتخاذ آخر خطوة نحو الاستقلال بحلول ذكرى الاتفاقية.

وطالبت المذكرة، الجهات السياسية، والمنظمات المهتمة بالوثوق في (خارطة

الطريق) هذه، والأخذ بمضامينها، والاستفادة منها لأجل صياغة خارطة طريق كوردستانية شاملة موحدة.

وحددت المذكرة مضمونها بالنقاط التالية:
أولاً: عقد مؤتمر موسع وعاجل، قبل نهاية العام الحالي ٢٠١٤، يدعى إليه مجموعة من الخبراء القانونيين، وممثلي القوى السياسية، وعلماء الدين، والمفكرين والمثقفين، وممثلي الكتل البرلمانية، وممثلين عن حكومة الإقليم، لتحديد خطوات العامين المقبلين، تحت رقابة (برلمان كوردستان)، باعتباره المرجع السياسي لشعب كوردستان.

ثانياً: تشكيل لجنة من المترجمين المحترفين، لترجمة الوثائق الخاصة التي توثق معاناة الكورد، بعد اتفاقية سايكس - بيكو، إلى اللغات الرئيسة العربية والإنكليزية والفارسية والتركية، بالأخص ترجمة الملفات التالية:
ا- مشروع طمس الهوية الكوردية.
ب- تشويه ديموغرافية كوردستان، وتغيير جغرافيتها الإدارية.
ت- الترحيل القسري للكورد، وتشتيتهم خارج أرضهم.
ث- عمليات القتل والتصفية (الأنفال).
ح- قصف (حلبجة)، ومناطق مختلفة كوردستانية، بالسلاح الكيمياوي.
خ- قائمة بأسماء ضحايا النظام من شهداء ومصابين.
ج- السجلات المدونة فيها أسماء المدن والقرى المدمرة.

ثالثاً: بعد ترجمة وإعداد الوثائق، يتوجب الإسراع برفع تلك الوثائق والأدلة إلى الجهات الدولية، عن طريق برلمان كوردستان، أو عبر ممثليات حكومة الإقليم في الخارج..

رابعاً: من الضروري بعد الاطمئنان على وصول تلك الوثائق إلى الجهات الدولية، القيام بتحركات دبلوماسية، على المستوى الرسمي لحكومة إقليم كوردستان، بمشاركة شخصيات سياسية ومنظمات حقوقية، تستهدف زيارة المراكز العربية، والإسلامية، والدول الأوروبية، وبالأخص الأشخاص والدوائر المؤثرة على أعضاء مجلس الأمن الدولي، لتشكيل لوبي يساند الكورد وقضيته، وتحليل تلك الوثائق بشكل مباشر، وإيصال مطالب الكورد، وآخر مستجدات المنطقة إلى تلك الدوائر الدولية.

ثامناً: يجب وضع خطة شاملة لإعادة هيكلة قوات البيشمركة، وإكمال جهوزيتها، وفتح دورات توعية، ووضع خطة للتدريب العسكري المكثف، وإن اقتضت الضرورة

تشكيل ألوية جديدة، ومطالبة القوى السياسية والمواطنين الانخراط فيها.

تاسعاً: تهيئة أرضية مشتركة في مجال عقد الاتفاقيات الأمنية على مستوى دول الجوار، والمنطقة، وحتى على المستوى الدولي.

عاشراً: توفير جزء من الاحتياطي النقدي، خاصة لحملة العامين المقبلين، لتدارك أي متغيرات غير متوقعة.

أحد عشر: يتوجب تعديل بعض المواد ذات العلاقة في دستور إقليم كوردستان قبل نهاية العام المقبل ٢٠١٥، وبحسب مقتضيات مصلحة شعب كوردستان.

اثنا عشر: تكليف لجنة مختصة لتأشير حدود جنوب كوردستان، بما فيها المناطق المسماة (المتنازع عليها) في الدستور العراقي، بالاستناد إلى الأدلة والوثائق التاريخية.

ثلاثة عشر: إشراك ممثلي بقية القوميات وأصحاب الديانات بكوردستان، في اللجان والآليات ذات العلاقة، لتطمينهم على تثبيت حقوقهم في دستور دولة كوردستان.

أربعة عشر: تخصيص ميزانية خاصة لإدارة المناطق الكوردستانية خارج إدارة الإقليم، خصوصاً من الناحية الخدمية، وتوفير رواتب الموظفين وقوات البيشمركة.

خمسة عشر: تعديل المواد القانونية الخاصة بعدد أعضاء البرلمان، وزيادة عدد المقاعد، بحيث يصار إلى إجراء انتخابات تكميلية للمناطق الكوردستانية خارج إدارة الإقليم، خلال مدة لا تتعدى نهاية ٢٠١٥.

ستة عشر: تعديل قانون النفط والغاز في إقليم كوردستان، بحيث يتماشى مع الاحتياجات الجديدة للإقليم خلال الأشهر الستة المقبلة.

سبعة عشر: تشكيل لجنة سياسية عليا لإطلاق حملة دبلوماسية خاصة للتحاور مع الأطراف السياسية والمرجعيات والشخصيات العراقية، بهدف تشكيل لوبي داخلي مساند، وتقليل العقبات أمام المشروع المرتقب.

وختمت المذكرة بالقول: ما تقدم – من وجهة نظرنا – خطوات أساسية في (خارطة الطريق) للعامين المقبلين، ويجب قبل ظهور أي سيناريو جديد، وضياع الوضع القائم، المباشرة بتنفيذ تلك الخطوات، وحسب الأولويات، مع اتخاذ خطوات أخرى، على أن تكون عوامل (السرعة)، و(الفاعلية)، و(وحدة الصف)، شروطاً لازمة لإنجاح هذا المشروع. ❐

ملتقى حواري شرق أوسطي بأربيل يبحث قضايا العراق والمنطقة

متابعة وإعداد: المحرر السياسي



انطلقت بأربيل عاصمة إقليم كوردستان، يوم الثلاثاء الموافق ٢٠١٤/١١/٤، جلسات ملتقى الحوار والمصالحة في الشرق الأوسط.

الملتقى الذي استمر ثلاثة أيام نظمته (مؤسسة الشرق الأوسط للدراسات والبحوث الاستراتيجية)، ناقش مشكلات منطقة الشرق الأوسط عامة، وأزمات العراق على وجه الخصوص.

وشارك في هذه الحوارات والمناقشات مجموعة كبيرة من القادة والسياسيين العراقيين، بينهم رئيس الجمهورية العراقي (فؤاد معصوم)، ورئيس وزراء حكومة الإقليم (نيجيرفان بارزاني)، ورئيس مجلس النواب العراقي (سليم الجبوري)، والأمين العام للاتحاد الإسلامي الكوردستاني (محمد فرج)، وأمير الجماعة الإسلامية الكوردستانية (علي بابير)، وشخصيات سياسية كوردية أخرى، منهم الباحث الإسلامي (ابو بكر علي)، إلى جانب مجموعة من وزراء الحكومتين الاتحادية وإقليم كوردستان، والباحثين الكورد والعراقيين والأجانب.

وقال رئيس مؤسسة الشرق الأوسط، المنظمة للملتقى، الدكتور (دولار علاء الدين)، في كلمة الافتتاحية: إن "الملتقى يهدف إلى وضع استراتيجية لإعادة الأمن والاستقرار لمنطقة الشرق الأوسط، من خلال دراسة المشكلات العالقة، وتقديم خارطة طريق للقادة والسياسيين المعنيين، وتقريب وجهات النظر بين صناع القرار".

وأضاف علاء الدين قائلاً: "عملية المصالحة معدومة تقريباً بين السياسيين،

ونقاط تقاربهم باتت قليلة، لذا نحن نهيء حيزاً أكاديمياً محايداً لتسهيل عملية الحوار بين هذه الأطراف"، مبيناً أن: "الجميع في المنطقة يشاركون في أمنها ومشكلاتها"، مشيراً إلى أن الملتقى يسعى لأن يطرح المشاركون آراءهم ومقترحاتهم ووجهات نظرهم حول ما يجري في المنطقة، وكيفية إيجاد الحلول لها.

الجلسة الأولى للملتقى جمعت بين شخصيات أكاديمية وصناع قرار، وتم تبادل الآراء فيما بينهم حول (كركوك)، والمناطق المتنازع عليها، باعتبارها أعقد القضايا التي تواجه العراق.

وخصصت بقية الجلسات في اليومين التاليين حول تنظيم (داعش)، وسبل إنقاذ المجتمعات من سطوته، بالإضافة إلى مناقشة سياسة (تركيا) في المنطقة، ودورها في تغيير معادلات الشرق الأوسط، وكذلك الدور الإيراني في المعادلة السياسية والحالة الراهنة، إلى جانب تناول السياسة الأميركية على المدى البعيد في المنطقة، مع تناول العوائق التي تقف أمام تحقيق المصالحة الوطنية، وفرص النجاح في إعادة إشراك السُنّة والحوار والمصالحة في العراق. كما حملت الجلسة الختامية عنوان (إقليم كوردستان: الاعتماد السياسي، أم الاستقلال الاقتصادي).

وشارك رئيس الجمهورية (فؤاد معصوم) في الملتقى، بكلمة أكد فيها على أهمية أن يضطلع المجتمع ككل، والدولة بمؤسساتها كافة، من أجل العمل على تحقيق المصالحة الوطنية بأسلوب جذري وفعال، وبما يساعد على تأمين السلام والأمن في العراق.

من جانبه دعا رئيس مجلس النواب العراقي (سليم الجبوري) إلى مراجعة مشروع المصالحة الوطنية، واستدراك أخطائه السابقة، وقال إن: "الأزمة الأساسية الحالية هي أزمة ثقة متكاملة بين الأطراف السياسية على مستوى النخب انتقلت على مستوى الجمهور".

وفي مداخلة له أكد الباحث والمفكر الإسلامي الكوردي (أبو بكر علي) أن العراق بات إطارا جامعاً مجرداً لعدة مكونات، لا وحدة انتمائية جامعة، والأفضل التقسيم لمنع إراقة المزيد من الدماء، ولتنتهي معاناة الجميع، التي طالت ما يقارب القرن من الزمان.

واختتم (ملتقى الحوار والمصالحة في الشرق الأوسط) جلساته مساء يوم الخميس الموافق ٢٠١٤/١١/٦، وسط إجماع المشاركين على أهمية عقده، وتفاؤلهم بمخرجاته❑

ندوة

ندوة تناقش التطرف الديني وسبل معالجته

متابعة وإعداد: المحرر السياسي



أربيل: الحوار

بعد بروز (داعش) على مسرح الأحداث في سوريا والعراق، وشنه عدواناً على إقليم كوردستان، تحركت الأوساط الإسلامية – أحزاباً وهيئات – إلى جانب المؤسسات الفقهية والأكاديمية الكوردية، للوقوف بوجه تصورات التنظيم المتشدد، وتفنيد حججه ودحض طروحاته، بالتزامن مع المواجهة الميدانية التي تخوضها قوات البيشمركة في عدة جبهات عسكرية.

ونظمت العديد من الندوات الإسلامية والملتقيات الفكرية في محافظات الإقليم، لتحصين المجتمع الكوردي من الفكر المتطرف، وتعبئته للتصدي لمخاطره.

وفي هذا السياق، عقدت بأربيل، يوم الإثنين الموافق ٢٠١٤/١٠/٢٧، ندوة فكرية بعنوان (ظاهرة التطرف الفكري.. أسبابها، وسبل معالجتها).

ونظَّم الندوة (اتحاد علماء الدين الإسلامي في كوردستان)، بالتعاون مع (كلية العلوم الإسلامية) بـ(جامعة صلاح الدين).

وشارك في الندوة مجموعة من الأكاديميين والمفكرين والمختصين في الفكر الإسلامي من إقليم كوردستان، وتركيا، وبعض الدول العربية.

وأكد المشاركون في الندوة أن التطرف الديني تصاعدت وتيرته في المنطقة، جراء ظهور جماعات متطرفة، تسعى لتأسيس ما تسميها (دولة الخلافة) عابرة للحدود، لتطبيق نظرتها المتشددة للشريعة على المجتمع.

وفي مستهل الندوة، قال رئيس (اتحاد علماء الدين الإسلامي في كوردستان) الشيخ (عبدالله ملا سعيد): إن الندوة تهدف لدراسة التطرف الديني، وظهوره في كوردستان والعراق، وبين أنَّ الندوة تركز على موضوع: هل أنَّ للتطرف الديني جذور في المجتمع الإسلامي، أم أنه ظاهرة دخيلة عليه؟ فضلاً عن تصحيح الفهم الخاطئ لدى البعض، الذين يقولون إن الأصل في الإسلام الحرب، وليس السلم.

وأشار إلى أن: "كوردستان بشكل عام تتجه نحو الوسطية، ولكن حدثت ظواهر من هناك وهناك، والتحق بعض الشباب الكورد بالجماعات المتطرفة، ولهذا رأينا أن نبحث عن الحلول، ونقطع الطريق أمامهم، بتوضيح ما فهموه بشكل خاطئ".

وتضمنت الندوة جلستين، تناولت الأولى، التي ترأسها الدكتور (بشير خليل الحداد)، تقديم ثلاثة بحوث تحت عنوان (بناء الإنسان أصل بناء العمران) للباحث (نوزاد صواش) من (تركيا)، و(جدلية العلاقة بين النص والواقع في نصوص الشريعة) للباحث (عبدالرحمن صديق)، و(الآخر في الثقافة الإسلامية) للدكتور الشيخ (عثمان محمد حلبجيي).

وفي الجلسة الثانية، التي ترأسها الدكتور (أحمد الشافعي)، قدَّم الدكتور (جمال السفراتي)، من (الأردن)، بحثاً بعنوان (دور المؤسسات الدينية والتربوية في مواجهة الفكر المتطرف)، كما قدم الدكتور (جه تو هرمزياري) بحثاً بعنوان (الفكر التطرفي دخيل على المجتمع الكوردي).

وأشار الأكاديمي (جمال السفراتي)، الذي قدم ورقة عمل عن دور المؤسسات الدينية والتربوية في معالجة الفكر المتطرف، إلى جملة أسباب حول ظهور

التطرف الديني في المنطقة العربية، وأوضحها بالقول: "هذا يتحمل مسؤوليته أطراف كثيرة، لأنَّ هناك أسباباً سياسية عميقة وأسباباً خارجية عميقة وأسباباً داخلية عميقة، وأنا أتحدث عن أسباب داخلية، إنه ليس عجز العلماء، ولكن بطريقة معينة بإراداتهم، أو بغير إرادتهم، أُشغلوا بتوافه الأمور. والآن فإن أهم شيء لدينا، وهو مسؤولية كل عالم، وكل مفكر: هو إعادة بناء الإنسان، وخاصة في العالم العربي. والمسؤولية يتحملها بالدرجة الأولى العلماء والحكام، وبالدرجة الثانية بقية الناس، وخاصة المثقفين منهم".

بينما أشار الدكتور (عثمان محمد حلبجي) إلى أن التكفير دمر الخلافة، وقتل الخليفة (علي بن أبي طالب)، مؤكداً أن التكفير إذا حل بمكان تبعه التفجير والقتل، وهدّم الدول التي حل بها. وأكد أن الأصل عند الفكر المتطرف التكفير، بينما الأصل في الإسلام الرحمة والتسامح، ولا بد أن يعرف ذلك كل العاملين في مجال الدعوة، كي يتمكنوا من مواجهته. وتابع بالقول: "إن القتل أصبح وظيفة (داعش)، وأصبحت تكفر الجيوش العربية، بطريقة لم يعرفها الفقه الإسلامي من قبل، فهم يقتلون الشخص على أساس هويته".

وأكد الدكتور (جتو هرمزياري) أنَّ المجتمع الكوردي بعيد كل البعد عن الفكر التطرفي، وأنَ هذا الفكر دخيل على المجتمع الكوردي، الذي تمتع منذ القدم بروح الوسطية والاعتدال والتسامح وقبول الآخر، وعلى علماء الدين الإسلامي إبراز هذه الخصال الحميدة في المساجد وخطب الجمعة، وتربية الجيل الجديد على هذا الفكر الوسطي المعتدل.

وأجمع الباحثون في بحوثهم على أهمية مثل هذه الندوات، وبالأخص في مثل هذه الظروف الراهنة، وأكدوا على أهمية الكشف عن دور المؤسسات الدينية في مواجهة الفكر التطرفي، وأكدوا أنَّ الإرهاب دخيل على المجتمع الكوردي، مشيرين إلى أن مثل هذه الندوات تهدف الى إظهار أن الأصل في الإسلام السلم، لأنَّ الكثيرين فهموا الواقع الاسلامي فهماً خاطئا، باعتبار أنَّ الأصل في الإسلام الحرب وليس السلم.

وانتهت الندوة بمداخلات العديد من الحضور، خاصة المشاركين من طلبة كلية العلوم الإسلامية، وبعض أساتذة ومحاضري الكلية ❐

آخر الكلام

تحريف من نوع آخر



محمد واني

✍إذا كانت (التوراة) و(الإنجيل) قد تعرضا إلى التحريف والتشويه، من قبل البشر، بحسب النص القرآني، وأضيفت إليهما، أو نقصت منهما، كلمات: {يحرفون الكلم عن مواضعه}، من أجل تحقيق مصالح وغايات معينة، لفئة، أو لجماعة، أو أمة. فإن الدين الإسلامي أيضاً قد تعرض لتحريف وتشويه كبيرين، ولكنه تحريف من نوع آخر، لا يقل خطورة عن التحريف الذي أدخل إلى الكتابين السماويين السابقين: تحريف في (التأويل والتفسير)، وتحريف في تقطيع (القرآن)، وتجزئته، وأخذ ما يوافق آراء وأهواء ومصالح جماعة، أوحزب معين، وترك ما يخالفها. وهذا ما نهى عنه (القرآن) بشدة، عندما قال: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ...﴾ صحيح أن نصوص القرآن وآياته بقيت، وستبقى، محفوظة إلى يوم القيامة، ولم يتغير الكلم عن مواضعه، لأن الله (سبحانه) قد تكفل بحفظه. ولكن التحريف جاء من خلال التأويل والتفسير – كما قلنا – عقب وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم) بفترة وجيزة، وأصبح ظاهرة، بعد انتشار الإسلام، وتمدده شرقاً وغرباً، ودخول الشعوب المختلفة في الدين الجديد، حتى ظهرت حركات وجماعات إسلامية سياسية واجتماعية لا حصر لها، كلها تزعم أنها تتبع القرآن، وتنهل من معينه، مثل: حركة (الخوارج)، و(الشيعة)، وحركات (الزنوج)، و(الحشاشين)، والفرق المتصوفة، والمعتزلة، والقدرية، والجبرية، والجهمية، وغيرها الكثير، ولحد الوصول إلى التنظيمات والجماعات والأحزاب الإسلامية المعاصرة، وهي كثيرة، أكثر من الهم على القلب، وكل واحدة من هذه الجماعات تدعي أنها على الحق وصراط مستقيم، وغيرها على الباطل والضلال المبين! والعجيب أن جميع هذه الفرق لديها ما تؤكد به، بدلائل قاطعة من آيات الذكر الحكيم، أنها على الحق، وغيرها على الباطل!

والسؤال الذي يطرح نفسه: فإذا كان الجميع على الحق، فمن إذن على الباطل؟! ومن هو المسلم الحقيقي، ومن هو المسلم المزيف؟ ومن يزايد على الإسلام، ويتاجر به؟ ومن يخلص له، ويدافع عنه؟ لا أحد يعرف بالضبط الجواب القطعي لهذه الأسئلة، وسط الكم الهائل من الاختلاف القائم بين المسلمين، والذي يصل في كثير من الأحيان إلى حد التقاتل والتذابح!!❒


مدينة العمادية/دهوك